

الباب الخامس

في سرد جملة من أخلاقه السنية السنية وأحواله الزكية المرضية التي انفرد بها في دهره ولم نرها مجموعة في غيره ولا سمعنا بها عن أحد من أهل عصره لا من الموصوفين بالولاية والمشار إليهم بالخصوصية ولا من المشهورين بالمشيخة ورسوخ القدم في التسليك والتربية فضلا عن غيرهم من أهل العلم الظاهر مع اجتماعنا بكثير من شيوخ المغرب والمشرق ووقفنا على أخبار جل من لم نره منهم من طريق أصحابهم وكتب تراجمهم وأخبارهم بل لم نر أخبار الشيخ رضى الله عنه مجموعة إلا في السيرة النبوية وتراجم كبار أفراد الأمة المحمدية وكل رجالها من السلف الصالح والخلف الناجح رضى الله عنهم وعنا بهم وسلك بنا بفضلهم منهاجهم وحشرنا في زميرهم آمين .

فصل

فمن ذلك شدة تعظيمه ومحبته واحترامه للشيوخ الذين أخذ عنهم ولو دروساً قليلة من العلم فكان يبالي في الأدب معهم ولا يتقدم أمامهم في شيء من المسائل ولا يظهر علمه بمحضرهم وإن كان أعلم منهم ولا يجادلهم ولا يناظرهم في شيء إلا على سبيل الندرة مع كمال الأدب والاحترام .

وكان يشد الرحلة من طنجة الى فاس في مدة ثمانية أيام لزيارة شيوخه ، ولما توجه الى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة شد الرحلة منها إلى الشام لزيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتاني رضى الله عنه . وكان وقتئذ ببيروت قبيل نزوله إلى المغرب ، فلما وصل إلى الباب واستأذن خرج الشيخ لمقابلته فلما وقع بصره عليه انكب على رجليه يقبلها والشيخ يحاول منه

من ذلك وهما في الشارع خارج الدار ومكث عنده ثلاثة أيام طلب منه فيها ان يذهب لزيارة الامام الازاعي ، فقال له : والله لو كان حياً ما ذهبت إليه لأنني قصدت زيارتك فلا أزور أحداً معك . وكان لا يتكلم في مجلسه كأنه لا يعلم شيئاً من العلم أصلاً . وكذلك كان حاله مع غيره .

وكان شديد التعظيم والاحترام لحمة العلم ولو كانوا حساده وأعداءه الذين بالغوا في إذايته والمجاهرة بعداوته . وكان للأذكياء والنبغاء منهم أشد احتراماً ومحبة وإكراماً ينوه بقدرهم ويشيد بكرهم وينشر فضلهم بين أقرانهم . وكان لا يأتي إليه أحد من أهل العلم إلا وينهض لمقابلته بمزيد فرح وسرور ويقضى حوائجه بعناية تامة ويكسوه إن كان محتاجاً ويتحفه بتحفة من كتاب ونحوه ويصله بالمال إن كان من الفقراء المحتاجين ويبالغ في الوصاية باكرامه والبر به من هو مكاف بالضيوف في زاويته إن كان من الغرباء الوافدين عليه وهم الآكثرون لأن طنجة قليل بها أهل العلم لاسببها إذا سبق لأحد منهم إذاية في جنبه أو كان يتظاهر بعداوته ويتكلم فيه بما لا يليق في غيبته فإنه يقربه ويدنيه وبكرمه بما لا يكرم به أحب الناس إليه . فمنهم من ينجح ذلك فيه لسابق عناية من الله به فتقلب عداوته محبة وإذايته برأ واعتقاداً . ومنهم من يغاب عليه طبعه اللئيم فيصر على ما كان عليه ، وربما خالف ظاهره باطنه . وقد بالغ بعض القضاة في عداوة الشيخ إرضاء للفرنسيين وتقرباً اليهم إلى أن مرض مرضاً أعيا الأطباء دواؤه وايس معه من العلاج بل والحياة . فأرسل الى الشيخ يقول : قد عجز الأطباء وانقطع الرجاء ولم يبق إلا الالتجاء الى الله تعالى وأتم أبواب الله فعالجه الشيخ بأدوية وصفها له فشفاه الله في الحال وبعد قيامه استدعاه الشيخ وعمل له وليمة فاخرة .

وجاء بعد انتقاله قانس آخر فأظهر من العداوة للشيخ إرضاء للفرنسيين

أشد ما كان يظهره الأول ودام على ذلك مدة إلى أن اجتمع بالشيخ مرة فلاطفه وأكرمه فانقلبت عداوته محبة وتلمذ للشيخ وصار لا يصدر إلا عن رأيه وإذنه في غالب مهامه إلى أن مات .

وقد وفد بعض المدرسين إلى طنجة واتخذها داراً وشرع في التدريس وتظاهر أيضاً بالعداوة الشديدة للشيخ حسداً منه وبغضاً كما هي عادة جل طلبة الوقت وصار يعرض بالشيخ في دروسه ومجالسه واشتهرت إذايته بين الناس كافة لكثرة ما كان يطلق لسانه في الشيخ رضى الله عنه إلى أن نزل به ما اضطره إلى القدوم إلى الشيخ والتعلق به كما هي عادة الله مع غالب أعدائه فأكرمه وبالغ في ذلك وأعطاه كتباً جليلاً فتلمذ له وأخذ عنه الطريق وصار يلازم مجلسه ويستفيد منه مدة إقامته بطنجة . ثم لما رجع إلى بلده صار يتردد منها بقصد زيارة الشيخ واستشارته والاستعانة به في بعض أوطاره ، وطلب منه أن يلقنه الاسم الأعظم ويأذن له في علم الحرف والتصرف به ، فأجابته بأن هذا الأمر رفع سره والتصرف المطلق به من سنة عشرين وسيقع الأذن بذلك في سنة أربع وخمسين فإذا حصل الأذن فاني سأعلمك لتقدم فلما دخلت سنة أربع وخمسين كتب الشيخ إليه يخبره بأن الأذن قد حصل ويقول له : إذا أحببت ذلك فأقدم . قال فشغاني عن القدوم شأن الوظيفة الحكومية وأشغالها وبقيت أنتهز الفرص وأسوف نفسي باليوم وغد إلى أن بلغني خبر وفاته فحصل من الندم والحسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكم لهؤلاء من نظير .

وكان يحترم جملة القرآن العظيم ، لاسيما حفاظ السبع والمتقنين لعلم القراآت بل كان يتعشق هذا الصنف من الناس ويطير فرحاً عند رؤية واحد منهم ويكرمه بكل ما لديه ويحفظ ترجمته وأخباره ، ويتحدث بها عنه في غيبته تشويقاً للسامعين إلى الاشتغال بحفظ القراءات وعملاً بالوارد في أكرام جملة القرآن ، وربما علل ذلك في بعض الأحيان بقوله ان هذا العلم كاد ينقطع وقد كان جدنا سيدي الحاج أحمد يتقنه غاية وبلغ فيه رتبة الامامة ، فكان

الواجب علينا الاقتداء به والاعتناء بهذا العلم ، فأذا فاقنا فلنحجب أهله ولنعتن بهم .

وكان يبائع في إكرام معلم أولاده القرآن ويحترمه احتراماً زائداً وينزله منزلة سامية ويفدق عليه من العطايا ما لم يمهده له نظير من غيره ولا ينازعه في شيء يفعله بأولاده ولو ضربهم الضرب المبرح الخارج عن الحد الشرعي الأدبي ، بل والذي لا يكاد يقبله أكثر الناس فكان لا يكلم المعلم في ذلك بكلمة ولا يوافق من يريد أن يكلمه من الفقراء ، بل يرد اللوم في ذلك على الولد ، ويقول لو لا أنه مشتغل باللعب غافل عن حفظ سورة ولوحه لما فعل به الفقيه ذلك مع أنه كان إذا رأى معلماً يضرب أولاد الناس بأقل بكثير من ذلك يعظه ويذره ويذكر له ما ورد في الظلم والتعدي ، ويحدد له الأدب الجائز شرعاً من عشرة أسواط ونحوها . أما معلم أولاده فلا يسمعه شيئاً من هذا إكراماً له وقياماً بحقوقه وهضمًا لحقوق نفسه وعياله وجبا في القرآن العظيم .

وكان يحترم أولاد الشيوخ وحفدتهم ويبائع في إكرامهم قياماً بحقوق آبائهم وأجدادهم ، فكان إذا قصد واحد منهم يبادر إلى لقائه ويظهر مزيد الفرح والسرور به والاعتناء بشأنه ولو كان غير ظاهر الاستقامة ، ويصله بما لديه ، ويلطفه ويسأله عن أحوال والده وجدته وعن كتبه ومؤلفاته ، وربما كان الشيخ هو المفيد له بترجمة والده وجدته وذاكرته منها ما لا علم له به .

وكان يوصي أصحابه وقرابته بمثل ذلك ويقول لا يفتر بظاهر حال أولاد أهل الله فانهم كالرماد لا نار فيه ، ومن داسه بقدمه أحرقه . فذرية الأولياء وإن لم يكن لهم من الفضل والصلاح ما كان لآبائهم فإن من آذاهم أصيب بعطب غير من الله لأسلافهم ، وكذلك كان يذكر في حق أولاد العلماء ما يحمل على إكرامهم واجتناب إذائهم واحتقارهم ، هذا كحال

رضى الله عنه مع اولاد مطلق العلماء والشيوخ أما اولاد شيوخه هو وحفدتهم فكان إذا ورد عليه واحد منهم يظهر له من الاجلال والتعظيم مالا يوصف بل كان ينزل نفسه منهم منزلة التلميذ من الشيخ .

حدثني بعض من كان يجالسه قال : حضر شابان من حفدة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى من فاس ونزلا عند الشيخ فحضرت معهما ذات يوم وقد أتى بالمشاء فصرنا نأكل والشيخ يتحدثنا عن أدب الأكل وما ينبغى أن يقدم ويؤخر من جهة الشرع والطب ويذكر ما يتعلق بذلك من الحكايات فلما أردنا الانصراف قام إلى باب الغرفة وصار يصف نعالي الشريفين ، فقالا له يا سيدى نستشير معك في الذهاب الى تطوان . فقال لهما النظر لكما فان عزمنا على الجلوس فأتنا في بيتكما أو على الذهاب فالرأى رأيكما وأما أنا إلا عبد لكما .

وكان لأهل البيت أشد احتراماً وتعظيماً ومحبة من كل من تقدم على أى حالة كانوا لا يشترط فيهم صلاحاً ولا علماً ولا فضلاً ولا تقوى ، ويقول : علينا أن نقوم بواجبهم ونكمل أمرهم الى الله تعالى . وكان لحبهم يحب الكتب المؤلفة في فضاهم ويبحث عنها ويجمعها ويجب من يحبهم ويؤلف في فضائهم ويعنف من تصدر منه اذاية لواحد منهم اذا كان من تلامذته وأقاربه ولو أنهم من أهل البيت أيضاً صدر ذلك منه مراراً عديدة مع جماعة كثيرة في وقائع مختلفة .

منها : أن شريفنا صدر منه ما يوجب تأديبه من الحكومة التابع لها فقر وجاء الى الشيخ مستجيراً فأواه وأكرمه وأزله في منزل مجاور لبيته مع بعض أنجاله وجعله واحداً منهم . فلما طالت عليه المسدة واشتاق الى أهله ووطنه ، صار يسعى في ذلك فاتصل ببعض الجواسيس فأرشدته الى أن الطريق التي يمكن رجوعك بها وغفوا الحكومة عنك هو التجسس على الشيخ وتقديم أخباره وأسراره اليها ، فأجابه الى ذلك واستصدر له العفو من

الحكومة فصار يتردد اليهم وينقل لهم أخباراً يفترها حتى أدى به الطيش إلى أن نسب إلى الشيخ أمراً عظيماً في السياسة . ثم جاء إليه يريد أن يحتمل عايه في الموافقة على أمر يحقق له دعواه وكذبه على الحكومة ففطن له الشيخ وصار يلاطفه ويعده ويعنيه مع إكرامه وبره المستمر معه . فلما صدر منه هذا الأمر العظيم . وكان قد سبق منه أمور كثيرة هي أخف من هذا دخل بعض الفقراء على الشيخ متضجراً من أفعال ذلك الشريف طالباً منه الاذن في طرده وأمره بعدم الوصول إليه . فقام الشيخ في وجهه وغضب من قوله ، وصار يقول له : ماذا تفعل مع جده صلى الله عليه وسلم أبتصور في ذهنكم أننا نؤذي شريفاً ونطرده من بابنا ولو فعل بنا من الأذى ما فعل ، وهل رأيتم إذايته وصلت إلينا ولحقنا من ضررها شيء ، فلم يمكن ذلك الفقير إلا ان يستسمح الشيخ مما صدر منه في حق ذلك الشريف وينصرف .

وكان بعض الأشراف يلزم مجلسه سنين عديدة ويتناول الطعام معه في أكثر الأيام ويكثر من سؤاله عن المسائل العلمية والتصوفية فاطلع منه يوماً على مر يناقض مقصود الحكومة فأفشاء اليها ليتوصل بذلك إلى المال أو إلى وظيفة وحصل من ذلك الإفشاء فتن عظيمة دامت أكثر من عشر سنين ، ولا يزال أثرها سارياً إلى اليوم فما زاده ذلك إلا محبة فيه وتقرباً له وسمى له بعد ذلك في وظيفة يرتزق منها ودام معه على البر والاكرام والمحبة الأكيدة إلى الختام .

وهذا كان دأبه وديدنه مع أولاده وقربانه يربهم دائماً على محبة الأشراف وتعظيمهم وإجلالهم وعدم مقاباتهم بمثل ما يبدو منهم من الاساءة ووجوب تحمل ذلك منهم ويذكر الأحاديث الواردة بذلك وحكايات الصالحين في تعظيمهم وما نالوه من الفضل عند الله تعالى وعظيم المنزلة عنده بسبب ذلك حتى كان الصغير من أولاده وخدمه يعرف من قدر أهل البيت

مالا يعرفه الفقيه العالم المدرس وكذلك في حق الفقراء المنتسبين إلى أهل الله لأنه كان يريهم على ذلك بحاله وقاله وعمله ، لا بمجرد لسانه كما كان يحقر في أعينهم الدنيا وأهلها ويعرفهم أن محبتها والنظر إليها وإلى أهلها بعين الرغبة والاجلال يوجب المقت من الله تعالى والبعد من رحمته ويظلم القلب ويبعده من حضرة الله ويطمس عين بصيرته عن التطلع إلى العلوم والانتفاع بما يسمعه المرء من القرآن والسنة والموعظة ، ويقول يكفيكم أن الأغنياء لو بلغوا ما بلغوا في الغنى لا يصلون إلى درجة اليهود والنصارى فهم أغنى الناس على الاطلاق ، فلو كانت الدنيا ترفع من قدر صاحبها لرفعت من قدر اليهود والنصارى ولجرتهم إلى الخير وما ينفعهم في آخرتهم في أمثال هذا ما كان رضى الله عنه يربى به أولاده وأقاربه ويذكره في كل مناسبة حتى نشأ أولاده والحمد لله على هذا الخلق العجيب الغريب بين أهل الوقت فلا يرون لأحد من أهل الدنيا والمراتب السامية في الغنى والرياسة قدراً ولا مزية من جهة غناه ورتبته ، بل ينقبضون عنه وينكشون ولا ينبسطون إلا عند رؤية أهل الفضل والدين والصلاح والعلم والعمل لا سيما أهل البيت منهم والذاكرين المنتسبين إلى أهل الله .

فضائل

وكان يربى أولاده من صغرهم على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وتعلق القلب بالله ومحبة والاقبال على العلم والعمل وترك ما فيه شهوات النفس وحظوظها ، ولا يسمح لهم بالتشبه بأهل الدنيا وأولاد الأغنياء في الملابس لا في جودة الثياب ولا في كيفية اللباس ، بل يلبسون ما توسط من الثياب وعلى كيفية التي يلبسها الفقراء ولا يسمح لأحد أن يلبس في رجليه الشرايات أو التقاشير ولا غيرها من ملابس الترف أصلاً . وإذا رأى على واحد منهم شيئاً من ذلك غضب غضباً لا مزيد عليه ، بل لو رآه يزني

ما زاد غضبه على ذلك ويأخذ منه ذلك الثوب فيقطعه او يتصدق به في الحال ويقول لا تطمعوا في الترفه والتدخل في مداخل الدنيا مادمنا بالحياة . فنحن لو أردنا ان نلبسكم الذهب والفضة ، وكان ذلك جائزاً لما غابنا ذلك والحمد لله ، ولكن موتكم والبكاء عليكم خير لنا من البكاء منكم ورؤيتكم في حالة لا ترضى الله والرسول وتخالف طريقتنا وطريقة سلفنا الصالح .

ومن أغرب أحوال الشيخ رضى الله عنه مع أولاده أنه كان يقدم غيرهم في المحبة والاكرام وجميع المصالح عليهم بما لا أظنه يوجد في غيره بل أكاد أجزم بأنه انفرد به في الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها بحكم ما فطر الله عليه طبيعة المخلوق من تغاب حب الأولاد على القلب وفرط ميله إليهم لا سيما إذا كانوا بارين مطيعين سائرين فيما يحبه الوالد ويرضاه كما كان أنجال الشيخ معه ومع ذلك فكان لا تتعارض مصالحهم أو واحد منهم مع مصلحة غيرهم من أقاربه وأصحابه وفقرائه بل وأعدائه الاقدم مصلحة ذلك الغير عليهم ولا جاء أحد صديقاً كان أو عدواً يشتكى أحد أولاده في شيء حقاً كان أو باطلا الاقام وتعد انتصارا لذلك الشاكي وأهان ولده أمامه ليشفى منه غيظه مع علمه غالباً بأن الحق مع ولده لا مع ذلك الغير وبالجملة فما رأيت في مدة ثلاثين سنة ولا سمعت عنه يوماً أنه انتصر لأحد من أولاده في شيء أصلاً حتى من كبر منهم وصار في مصاف الرجال بل والعلماء ونبغاء الطلبة بل غاية ما كان يفعله أنه بعد أن يهينهم ويوبخهم التوبيخ البالغ الذي لا يوبخه أحد من أهل الدنيا عبده فضلاً عن ولده أمام أحد من الأوباش والغوغاء فإذا ذهب ذلك المشتكى وانفرد بالولد يصير يلاطفه ويقول نحن ما فعلنا بك ذلك بفضاً وإهانة إنما فعلناه امتثالاً لأمر الله تعالى وقياماً بحقوق الأخوة واردة أن تكون كاملاً من أكابر الرجال وأفراد الأمة فإنه لا يسامح في حقه ويصبر على هضم نفسه امتثالاً لأمر الله وتخلقا بالأخلاق المحمدية إلا أكابر الرجال

والناس اليوم لا يرون لأحد حقا عليهم وإنما يرون حقوقهم على الغير فعلينا أن نقوم بحقوقهم ولا نطمع في أن أحدا منهم يقوم بحقنا وإذا ساويناهم في أخلاقهم واضاعتهم للسنة المحمدية وعدم العمل بها فمن يقوم بها وأى مزية لنا من بينهم ونحن ما شرفنا الله تعالى إلا بالعمل بالعلم والاقتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبروا ولا تضجروا من هذا فَمَا قَرِيبَ تَجْنُونَ ثَمَرَتِهِ وَهُمْ سَيَجْنُونَ ثَمْرَةَ أَعْمَالِهِمْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى الْحَقِّ فَسِيرْفَعِ اللَّهُ قَدْرَكَ وَيَزِيدَكَ بِهَذَا شَرَفًا وَيَمْدَكَ فِي بَاطِنِكَ بِأَنْوَارٍ وَمَعَارِفٍ وَسْتَرِي بِعَيْنِكَ مَاذَا سَيَنْزِلُ بَعْدُوكَ إِذَا أَنْتَ امْتَلَأْتَ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ إِذْ عَصَاهُ هُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيكَ وَلَمْ يَقُمْ بِحَقُوقِكَ الَّتِي أَوْجِبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاعِظِ يَسْلِي بِهَا الْوَلَدَ بَعْدَ إِهَانَتِهِ وَسَلْبِهِ حَقُوقَهُ وَتَمَكِّينَ عَدُوَّهُ مِنْهَا أَمَا كَوْنُهُ يَنْتَصِرُ لَهُ أَوْ يَرُدُّ عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْقَبَائِحِ وَالْجَرَائِمِ الْمَحْقُوقِ كَذِبِهَا فَذَلِكَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عِنْدَهُ ، ثُمَّ لَيْسَ هَذَا مَعَ الْبَعِيدِ فَقَطْ بَلْ وَمَعَ الْأَمَاءِ وَالْخُدَمِ دَاخِلِ الدَّارِ أَيْضًا فَمَا عِلْمُ أَنَّهُ رَجَحَ وَلِدَآلَهُ عَلَى خَادِمٍ أَوْ خَادِمَةٍ أَصْلًا فَقَدْ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمَّةٌ أَوْرَثَهَا فِرْطَ حِلْمِهِ وَمَسَاوَاتِهِ لِلْخُدَمِ بِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ أَنْفَهُ وَكِبْرًا وَعِظْمَةً لَا تَوْجِدُ إِلَّا فِي أَبْنَاءِ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ فَكَانَتْ تَأْنِفُ أَنْ تَطِيعَ أَوْ أَمْرَ أَحَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ وَزَوْجَاتِهِ بَلْ وَحَتَّى الشَّيْخَ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يُوَافِقُ هَوَاهَا فَكَانَتْ بِمُخْلَقِهَا هَذَا تَثِيرَ غَضَبِ أَوْلَادِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَرَبَّمَا أَسْمَعَهَا بِمَعْضَمِ كَلِمَةٍ قَبِيحَةٍ فَذَا أَوْصَلَتْ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْخِ انْتَصَرَ لَهَا وَجَاوَزَ الْحَدَّ كَأَنَّهُ هُوَ الْعَبْدُ وَهِيَ ابْنَتُهُ مَعَ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَتَضَجَّرُ مِنْ خَلْقِهَا وَكِبْرِيَّاتِهَا وَعِظْمَتِهَا ثُمَّ يَقُولُ أَمَرْنَا اللَّهُ تَعَالَى بِتَحْمَلِ أَخْلَاقِ السُّفْلَةِ وَعَدَمِ مَعَامَلَتِهِمْ بِالْمِثْلِ وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ لَوْ طَرَدْنَاهَا لَمَا وَجَدْتُمْ مَنْ يَتَحَمَّلُ خَلْقَهَا وَيَقْبَلُهَا عَلَى كِبْرِيَّاتِهَا وَعِظْمَتِهَا وَهِيَ لِالْوَمِّ عَلَيْهَا فِي طَبْعِهَا لِأَنَّهَا جَاهِلَةٌ وَإِنَّمَا الْوَمُّ عَلَى مَنْ يَدْعَى الْعِلْمَ وَالطَّرِيقَ وَاتِّبَاعَ السُّنَّةِ فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَحْمَلُ خَلْقِهَا .

وكان بعض أهل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة من أتباعه يؤذى الفقراء

غاية ويجتريء عليهم بيده فلا يكاد يمر عليه شهر بدون أن يؤذى أحدا من الفقراء ، ثم زاده حلم الشيخ وكرم أخلاقه غرورا إلى أن ضرب يوما بعض أولاده النبغاء الأذكياء ضربة منكراة ثم لم يكتف بذلك حتى صار إلى الشيخ يشتكيه أيضاً فبدلاً من أن ينتصر الشيخ لولده ونحسه غاية أمامه وأمره أن يقبل رجله ويستسمحه فصار يقبل رجله أمام الشيخ رضى الله عنه .

وكان له تلميذ آخر اليه المنتهى فى سوء الخلق والظلم والفسق والجور والكبرياء والعظمة والخذاع والغش والرياء والتصنع وسوء الظن والجهل بالله تعالى والغرور بالنفس والحقد والحسد واذاية الفقراء والأشراف والعلماء والصغار والكبار وأهل الحواضر والبوادي وأهل الفضل والدين لا سيما من قرابة الشيخ وأنجاله فانه يأتى إليهم من أنواع الاذاية والاهانة بما لا يتسع لشرحه إلا مجلد حافل وبما لا أظن أنه يخرج معه من الدنيا سالماً أو يحتم له بخير لفرط اذايته بحيث قل عنه حجاج الفقراء ولا لوم اللهم إلا أن يتداركه الله برحمته فيتوب توبة تكون سبباً لأن يرضى الله عنه ذلك الجهم الغفير من الأشراف والفقراء والفضلاء فيسامحوه فيما أتاه إليهم وإلا فلا بد من القصاص .

وكان الشيخ رضى الله عنه لفرط حماقة هذا الرجل وكثرة اذايته للضيوف والزائرين والفقراء لا يكاد يمر عليه يوم أو أسبوع بدون شكاية تردبه وشكاية منه بمن يظلمهم ويؤذيهم لانه لفرط حلم الشيخ وكرم أخلاقه وفرط حماقته هو واغتراره وقلة حيلائه وصفاقته وجهه كان يؤذى ولد الشيخ ويسمعه من السب والاهانة أمام الناس ما هو لائق بدينه وسفالة أخلاقه أو ابن أخى الشيخ أو صهره أو ابن عمه العالم الفاضل المدرس أو الأسيب الذاكر المنتسب ثم بعدان يقضى وطره من عرضه واهانته يسبق إلى الشيخ بالشكاية لاعتقاده ان الله اباح له عرض المسلمين والأشراف والفقراء من أصحاب ابن الصديق بل وظهورهم وأموالهم لفرط اغتراره بنفسه وجهله بالله

تعالى وبدينه فكان الشيخ رضى الله عنه يعقد المجالس المتعددة بين أصحابه وقرابته لأمره إياهم بطاعة هذا الجبار العنيد والكون تحت أمره ونهيه مع المبالغة في تعظيمه واطرائه والثناء عايه فلا يزيد ذلك إلا اعتواً واستكباراً وغلظة وفضافة وجرأة على الله وعلى عباده الصالحين استغلالاً لجأه الشيخ رضى الله عنه ومكانته ولولا هو لما شعر بوجوده أحد من أضعف ضعفاء أولئك الأفاضل ولما خطر بباله هو أن يجترى على واحد منهم كما هو حاله اليوم فضلاً عن ذلك الجمع العظيم وهكذا استمر الشيخ رضى الله عنه يقاسى معه الشدائد مع المبالغة في إكرامه وتعظيمه إلى أن صرفه الله عنه وشغله بدينياه وأراح الفقراء والزاوية وعمارها وزوارها من ظلمه وجوره وفساده نسأل الله العافية ولو لم يدل على عظمة أخلاق الشيخ رضى الله عنه وحلمه المفرط إلا صبره على إذاية هذا الرجل لكفى ذلك دليلاً على انفراده في الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها فوالله لو شئت أن أشرح إذاية هذا الرجل للشيخ في ذريته وأهله وقرابته وضيوفه وزواره وأصحابه ثم في نفسه ومانسبه إليه أخيراً وما قاله فيه مع عظيم إكرام الشيخ له ومراساته إياه لذكرت من ذلك ما يتعجب منه المتعجبون ويستغرب من سماعه السامعون ويجزم القارىء معه بأن الشيخ لاثانى له في الدنيا في عصره بل ولا قبله بكثير في هذه الاخلاق فلقد حكى العارف الشعرانى بعض البعض من عشر هذا عن القطب امولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ثم قال وهذا خلق غريب لا يوجد لا عند أفرادهم مع أنه والله ما ذكر عشر عشر معشار ما وأيناه من الشيخ رضى الله عنه في هذا الباب ولقد رأيت أحد أفراد هذه الأمة الحمديدية في عصرنا ممن لم تر عيناي بعد الشيخ رضى الله عنه مثله فكان يميل إلى أولاده بحكم العاطفة ويقدمهم على غيرهم ولا يقبل كلمة سوء من أحد فيهم حتى إنه صدر مرة من بعض أكابر أصدقائه ومحبيه الذين كانوا يخدمونه وينفقون

عليه ويواسونه المدة الطويلة أن قابل بعض أولاده بكلام فيه غلظة حتى أبكاه فدخل على والده وهو يبكي فانفعل والده لذلك انفعالا كبيرا وقابل ذلك المحب فأغلظ له جداً حتى إنه لما خرج من عنده حلف بالطلاق الثلاث أنه لا يبيت في بلد فيه الشيخ وسافر في الحال وكان ذلك آخر اجتماع بينهما مع أن الرجل من أكابر الأعيان الطاعنين في السن وأعظم المحبين ولم يصدر منه إلا كلام قاله بشدة في حالة غيظ فكيف بمن يصر على إذابة الأنجال وجميع الأقارب أزيد من خمس عشرة سنة بما لا يقبله المرء في أصحابه وأحبابه فكيف به في أنجاله وأقاربه من نسبة جميع الحرائم والطامات حتى في العقائد والديانات والاهانة باليد واللسان والسعي في الاذابة والعداوة واشاعة الامور القبيحة بالزور والبهتان لكي يتوصل بذلك الى أن يخلف الشيخ في مكانه حيث أن أولاده بالمثابة المذكورة ويعلم الشيخ منه ذلك وتبلغه إذابته إياهم صباح مساء طول السنين المذكورة ومع ذلك يعقد المجالس الحافلة أمام أعين المثين من الناس يعظم فيها من قدر هذا الجبار العنيد ويرفع من شأن هذا الجاهل المجرم بما لو أنفق مهجته ليشهد له به من هو دون الشيخ بمراحل لم يصل اليه فكيف بالشيخ أمام أولئك الجم الغفير من الناس تحقيقاً لمطامعه وإجابة لرغبته التي يؤذى أولاده من أجل الحصول عليها فلذلك قلنا إن هذا بما انفرد به الشيخ رضى الله عنه في الدنيا بأسرها والحمد لله رب العالمين .

فصل

وكان رضى الله عنه وصالاً لرحمه الدينى والطينى أما الدينى فقد ذكرنا صنيعه بأشياخه وأنجالهم وحفدتهم واما رحمه الطينى فكان لا ينسى أحداً مع كثرتهم بل يواسى الجميع ويكسوم كل سنة ويدفع أصدقة من يريد التزوج منهم حتى تترتب عليه في ذلك ديون عظيمة كل سنة وينفهم بالمال

والجاء والتوسط والشفاعات عند الحكام مع كون الكثير منهم يؤذونه بأذراع من الاذابات وربما جاءه الواحد منهم فلم يجد ما يعطيه فأخذ من أولاده وأعطاه وكان يحض دائماً على صلة الرحم وبر الوالدين ويبالغ في ذلك ولا يرخص لاحد في مخالفة من هو أكبر منه من العائلة فضلاً عن إخوته فضلاً عن والديه وهو الذي أمرني بتأليف مطالع البدور في بر الوالدين لقضايا صدرت من أقوام ووقع لبعض قرابته ان ادعت عليه امرأته العجوز البالغة من العمر ستين سنة عقب طلاقه إياها انها ولدت منه ولداً ذكراً لا يدري من أين اتت به فلما ذهبت القابلة والنسوة لم يجدن عليها أثر الولادة والنفاس اصلاً والولد مريض بجذبتها فأراد الرجن ان يلاعنها فامتنع اخوه وكان أكبر منه وقال له ان اللعان فيه بهدلة لا ترضى بها فأراد ان يخالفه ويلاعن لتحققه بافتراء المرأة عليه من وجوه متعددة فلما جاء الى الشيخ يستشيريه قال له حيث إن اخاك أكبر منك قد أمرك بالتخلي عنه فامتثل امر الله ولا تخالف إشارة اخيك .

فصل

كان الشيخ رضى الله عنه لا يخرج إلى السوق ولا يمر في الشوارع العامرة بالناس والدكاكين بل اذا خرج يوماً لزيارة أخ أو إجابة دعوة أو إلقاء درس يختار الشوارع الخالية ولو كانت بعيدة فراراً من الشهرة وتعظيم الناس وسلامهم عليه وكان يسرع في المشى ويمشى قصداً لا يلتفت لرؤية من عن يمين الطريق وشمالها حتى كان كثير من الناس إذا رآه مقبلاً لا يتهيأ له الخروج من دكانه للسلام عليه حتى يجده قد فاته وبعد عنه .

وكان لا يتولى شراء شيء بنفسه من أمتعة الدنيا وحاجياتها كيفما كانت الا الكتب وكان لا يما كس فيها ولا في غيرها إذا اشتراه على سبيل النادرة وكان التجار يعرفون منه ذلك فيطلبون في الكتب أضعاف ثمنها فان وافقه

الكتاب أخذه وإلا رده ولا ينقص من الثمن وكذلك إذا كان حاضراً وقت شراء شيء له لا يدع أحداً يما كس عنه بل يقول للوكيل ادفع الثمن وهكذا كان حاله في البيع أيضاً فإنه إذا توقف على ثمن شيء باعه بما أعطى فيه ولو كان ربع عشر ثمنه وكم كتاب ثمنه أربعون ريالاً واشتراه هو بأكثر من ذلك فأتاه فيه سمسار الكتب بأربعة وخمسة فباعه كلسان العرب وفتح الباري وشرح عليش على خليل وأمثالها وكم كتاب اشتراه بعشرين فأتاه فيه السمسار باثنين وقد باع بهذه الطريق مئات المجلدات حيث استدان مرة نحو ألف ريال من رجل فجاء يطلبه منه قبل أن يتيسر فأخرج مكتبته وباعها فما أتاه السمسار في كتاب ربع ثمنه قط بل على النسبة التي ذكرناها من نصف العشر وربعه وهو يعلم ذلك ويعلم فساد سيرة ذلك السمسار وما يصرف فيه تلك الأموال التي يسرقها في البيع ولكنه لفرط حياته وحقارة الدنيا في نظره لا يتوقف في شيء من ذلك وأين هذا من علماء الوقت الأغنياء الذين يمشون الزمن الطويل بما كسوا على القرش ونصفه وربما وعظوا من رأوه لا بما كس ويستدلون بحديث ينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كسوا السوفة وهو حديث باطل موضوع ويعرضون عن السنة الصحيحة الواردة بمدح السهولة في البيع والشراء والقضاء والاقتضاء والتخلق بأخلاق كمل الرجال .

وكان لا يمد رجله لا وحده ولا مع أهله لا في حالة المرض ولا في حالة الصحة وربما مد إحداها قليلاً إذا تعب بحيث لا يخرج بعدها عن هيئة المتربع وإنما كان يكثر من جلوس القرفصاء لا سيما عند المطالعة والكتابة وما رأته طول عمرى ماداً رجله ولا مستلقياً على قفاه ولا رافعاً إحدى رجله على الأخرى في جميع أطوار حياته وذلك لعظيم مروءته وكمال أدبه مع الله تعالى وتعام مراقبته .

وكان إذا غاب عنه أحد من جلسائه تفقده بالسؤال عنه وإذا علم بمرضه

تعاهده بالسؤال وارسال من ينوب عنه في العيادة مع وصف الأدوية وربما أرسل في اليوم الواحد مرتين وثلاثاً حتى كأن المريض من أعز أولاده كل ذلك قياماً بحقوق الأخوة في الله وآداب الصحبة والمجالسة فيه .

وكان إذا قصده أحد للسلام عليه لا يعطيه يده يقبلها إلا إذا انحنى هو على رأسه يقبله أو كتفه وما رأيته أعطى أحداً يده يقبلها وهو لا يتحرك ولا ينحني عليه أصلاً إلا مع أولاده الصغار حتى كنا نتعجب غاية ممن نراه يمد يده من العلماء والشيوخ لمن يريد تقبيلها من غير تحرك ولا تقبيل منهم أيضاً ليد المسلم أو رأسه ظناً منا أن ذلك هو حال جميع العلماء حتى علمنا أن ذلك مما انفرد هو به لكمال أدبه مع الله ومع خلقه وتعام تواضعه مع الناس .

فصل

وكان مفرد زمانه في قضاء حوائج المسلمين والسعى في مصالحهم لا يكاد يمر عليه يوم دون أن يجري الحق سبحانه وتعالى على يديه فيه قضاء حاجة أو حوائج على اختلاف المراتب والطبقات حتى كأن بيته من أعظم الإدارات المقصودة لذلك فمنهم من يطلب المال والمعونة ومن يطلب الدواء أو التوسط في دخول المستشفى مجاناً أو السفر كذلك أو إخراج ورقة الجواز إذا كان ممنوعاً أو متعسراً على مثله أو الشفاعة عند الحكام في قضية أو عند القاضي أو عند بعض التجار أو طلب وظيفة أو إسقاط دين أو تظلم من ظالم أو نحو هذا مما كان يمضي غالب يومه في قضاؤه إما بنفسه أو بإرسال رسل ومكاتب إلى من يتعلق ذلك به من الحكام داخل البلد وخارجها إذا ما كان أحد يقع في ورطة سواء من أصحابه أو من غيرهم إلا ويقصده لفك معضلته وتفريج كربته وكان يحث غيره على ذلك وينوه به غاية ويقول إن المجاهدة ومكابدة الأعمال الشاقة التي كان عليها السلف الصالح في الطريق قد انقرض وقتها فساد الزمان وانقلاب طبائع أهله ولم يبق اليوم إلا المحبة والتقرب إلى الله تعالى بالسعى في قضاء حوائج

المسلمين وإغاثة الملهوفين فان ذلك مما يرحم الله به العبد ويأخذ بيده كما أخذ هو بيد أخيه ومن أخذ الله بيده فقد أوصله الى كل خير

وكان في بذل الجاه عند الحكام المسلمين والنصارى في الشفاعات لا يجارى ولا يبارى ولا يستطيع أحد من أهل العصر أن يدرك له فيه غباراً فان الخلق كانت تتوارد عليه أفواجاً أفواجاً فيرسل الرسل ويكتب المكاتب بخطه الى الجهات المعينة الى القاضي والباشا والوزير والمندوب والحاكم والمراقب بالمدن والقبائل والمنطقتين السلطانية والحليفية وحكام الدولتين الفرنسية والاسبانية وعند سفراء الدول الأخرى أيضاً إن تعلقت المسألة بواحد منهم وربما كتب في اليوم عدة مكاتب وربما أرسل الى الحاكم الواحد عدة مكاتب أيضاً في القضية الواحدة بحسب رغبات أهلها لا يضجر من ذلك ولا يعمل ولا يرد طلب طالب فيه ولا مسألة سائل سواء قضيت تلك المسألة وقبلت الشفاعة أم لا وربما يبلغه عن الحاكم كلام قبيح قاله في حقه وفعل فعله مع بعض أصحابه ثم إذا جاء اليه أحد يطلب الشفاعة عند ذلك الحاكم أيضاً لا يمتدبر له بأنه عدوله أو بأنه لا يقضى ما يطلبه منه بل يسارع إلى إجابة طلبه وإرسال رسول من جهته أو كتابة كتاب اليه فلا يحصى كم مسجون خرج من السجن بشفاعته بعد أن حكم عليه بالسنين الطويلة ومنهم جماعة كبيرة ممن حكم عليهم بالثلاثين والأربعين لعظم جرائمهم السياسية فيخرجون بعد السنة ومنهم من لم يكمل السنة ولا يحصى كم وظف في الوظائف المختلفة من قضاء وولاية على قبيلة أو قرية وكتابة وتدريس وعدالة وغير ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الحصر ولا رأينا شرقاً وغرباً من الظاهرين في الوقت بالفضل والرياسة والجاه من يستطيع أن يتحمل عشر معشار ذلك ولعلم الناس بهذا أقبلوا على الشيخ رضى الله عنه

وكان لا يدعو أحداً من الناس باسمه المجرد بدون سيادة ولا يذكره كذلك في غيبته ولا يقتصر على ماجرى به عرف الناس من لفظ السني بحذف الدال

بل يذكر لفظ السيادة بكامل حروفه لأشريف والمشروف والعالم والجاهل وكان كثيراً ما يخاطب الرجل بمولاي زيادة في الأكرام والاحترام امتثالاً لأمر الله تعالى بأن تقول للناس حسناً .

وكان لا يمزح ويكره المزاح وينهى عنه حتى صغار الأولاد ويتعجب من أهل العلم الذين يمزحون لاسيما في دروسهم فانه لما توجه الى القاهرة سنة خمس وأربعين وكان يسمع عن بعض الظاهرين فيها بالدعوة الى العمل بالسنة والقيام بها وبلغه أنه يقرأ سنن أبي داود ذهب لحضور مجلسه والتبرك به فلما جلس لم يلبث إلا لحظة واذا بالشيخ المربي صاحب الاتباع الكثيرين الداعي إلى السنة فيما يزعم شرع يحكى الروس ليلة دخولها ويقلد فعلها وصوتها وصوت النسوة اللاتي يكن معها وهو باحيتته البيضاء فوق الكرسي يقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمايم والاحي ملتفة حرله . فقام الشيخ وخرج مندهشاً مما لم يره ولا خطر له على بال أن يوجد مثله . وكان يحكى ذلك على سبيل التعجب طول حياته ويضيف اليه ما هو قريب منه مما رآه من بعض علماء القاهرة أيضاً

وسمعت شيخنا الامام أبا عبد الله سيدي محمد بن جعفر الكتاني يقول كنت مرة أذكر الله تعالى فرأيت كأن شخصاً لطيفاً وقف بين يدي فقلت ما الذي قطع فلاناً عن الله وسميت بعض من كان في الوقت ينسب الى الصلاح ويحدث عن نفسه بأشياء فقال كثرة مزاحه مع الناس قال وقلت له ذلك باللسان الذي لم يفتر عن الذكر يعني أنه نطق بالكلام المذكور في حال نطقه بالذكر معاً فكان رضى الله عنه يحكى أن هذا من الكرامات التي وقعت له

وكان الشيخ رضى الله عنه ينزل الناس على حسب منازلهم التي أنزلهم الله بها ويعامل كل واحد منهم ظاهراً في المجاملة والبر والاكرام على قدر منزلته فلا يساوى بين الشريف والعامي ولا بين العالم والجاهل ولا بين أهل النسبة والفقراء المتجردين لذكر الله وغيرهم من عوام الناس امتثالاً للسنة الواردة بذلك وقياماً

بالتدبير الذي جعله الله بين عباده فقد دبر لهم الأحوال من غنى وفقرو وعز وذل ورفعة وضعة وعلم وجهل وقوة وضعف لتقوم بذلك حكمته فيهم فالعاقل عن الله يعامل أهل وقته على مقتضى تدبير الله لهم فاذا لم ينزل الرجل منزلته التي أنزله الله بها فقد استهان به وجفاه وترك موافقة الله تعالى في تدبيره وكان ما أفسد أكثر مما أصلح لأنه عكس تدبير الله على مقتضى الحكمة البالغة فالغنى اذا أقصيت مجلسه أو حقرت منزلته حقد عليك وتظاهر بعداوتك وأطلق لسانه فيك لان الله تعالى لم يعود ذلك بما خوله من نعمه وأسبغ عليه من فضله واذا عاملت الولاة والحكام بمعاملة الرعية فقد تعرضت لما هو أكثر فساداً وأعظم شراً لاعتياده العزة والرفعة ونفوذ الكلمة والاقترار على التصرف في الغير فلا يقبل المساواة بمن ولاه الله الحكم عليهم وأعطاه نفوذ الأمر فيهم ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم أنزلوا الناس منازلهم كما في سنن أبي داود من حديث عائشة رضی الله عنها وفي مقدمة صحيح مسلم عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم

وورد من طرق متعددة تزيد على العشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اناكم كريم قوم فأكرموا وفي رواية اذا اناكم شريف قوم قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضی الله عنه يدخل فيه كل كريم لقوم من سائر الأديان لا من المسلمين فقط لعموم اللفظ وشمول المعنى وتحقق الحكمة والعللة في الجميع

وكثير من الجهال يظن أن الصلاح والتقوى في التسوية بين الشريف والمشروف وربما يجعل ذلك ميزاناً يحكم به بالفضل وغيره فيقول لو كان فلان فاضلاً أو صالحاً لسوى بين عباد الله في الرتبة والبر والاكرام واذا لم يفعل ذلك فهو ذو وجوه وأغراض وذلك من فرط جهلهم ووجود حقد في بواطنهم وتطلع الى منازل ورتب لم يجعلهم الله من أهلها ولم يقض لهم بشيء منها فهم شيعوية الجاه والمنزلة يريدون أن يقلبوا حكمة الله في خلقه وسننه بين عباده

والمقصود أن الشيخ رضى الله عنه كان ينزل الناس منازلهم كما أمره الله تعالى وذلك بالنسبة الى الظاهر اما ما يتعلق بالباطن والمحبة القلبية فكان عجباً لا يفهمه الا من يفهم ما لأولياء الله تعالى من الكشف والنظر بعين البصيرة والسير مع مراد الله تعالى من خلقه في الباطن وحقيقة الأمر لا ما هو ظاهر عاينهم في الحال من الحركات والأعمال فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب بعض الافراد محبة زائدة ويعتنى من شأنهم وقضاء أوطارهم وإجابتهم إلى رغباتهم بما لا يفعله مع غيرهم ويفرح بمقابلتهم وينشط لمجالستهم وهم من أهل التخليط في الأعمال وتبافه عنهم تلك الأعمال السيئة والأفعال القبيحة وترد اليه الشكايات المتعددة فلا يزيد على أن يتعجب من ذلك أو يضحك منه ولا يكلم ذلك الشخص ولا يوبخه وربما كلفه بلين ورفق اجابة لرغبة الشاكي فقط ولا ينقص ذلك من قدره عنده ولا يصرف وجه عنايته عنه ويأتيه من هو مشهور بالتقوى والصلاح والفضل فيثقل عليه أمره ويقابله ظاهراً بما يجب له ويقضى ما ربه ولا يفرح وينشط كما يفرح لغيره وهذا من كشفه رضى الله عنه وإطلاعه على المقامات الباطنة

قال سيدي ياقوت العرشى رضى الله عنه ينبغي للفقير ان يعظم الناس بحسب دينهم في الباطن لا بحسب ثيابهم قال وقد رأيت شيخنا ابا العباس المرسي رضى الله عنه كثيراً ما يكرم بعض العاصين أكثر من بعض المطيعين فقلت له يوماً في ذلك فقال انه يظهر لى من المطيع عز النفس والكبر ومن العاصى ذل النفس والاحتقار فأعامل كل واحد بحسب ما في باطنه هـ . فحالة الشيخ رضى الله عنه جامعة بين الشريعة والحقيقة وهى اعلى من حالة العارف الشرانى رضى الله عنه الذى كان ينزل الناس منازلهم بحسب ما هم عليه من ذل النفس ولا يعظم بحسب الظاهر والثياب والضخامة لما في ذلك من مخالفة الحكمة التى دبرها الله لخلقها وأمر بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل — مل

وكان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا وأغنيائهم المشاهير ولو ألحوا في دعوته لا سيما في أواخر عمره وكذلك كان لا يذهب إلى الحكام ولا إلى المحاكم بل كان يرسل في الشفاعات أصحابه تارة بالمشافهة وأحيانا بالكتابة وربما طلب من الحاكم أن يقدم إليه ليكلمه في القضية إذا كانت مهمة فلا يتأخر عن ذلك لا سيما حكام النصارى فانهم كانوا يريدون الشرف برؤيته والافتخار بالاجتماع به ولم يذهب إلى الحكام بنفسه إلا مرتين سافر من طنجة إلى تطوان لمقابلة المندوب السامى في شأن مصالح المنطقة الغمارية مع أن السبب الباعث إلى ذلك هو أن طنجة محل إقامة الشيخ كانت تحت يد الدولة الفرنسية والمراقبة الدولية والحاكم العام للمنطقة الخليفة بتطوان لا يسمح له بالقدوم إلى طنجة فلذلك اضطر الشيخ أن يشد الرحلة لمقابلته مع عظم مصلحة تلك القبائل كافة .

وكان شديد الكراهة للرياسة ، ولمن يميل إليها يستجمله غاية وبعد قلبه فارغا من النور والاخلاص في الأعمال اذ لو كان نور العمل حالا بقلبه لا كسبه حب الخفاء والتواضع والاستكانة لله عز وجل ولعرفه بقدر نفسه ومترلتها من خاق الله تعالى الذين يريد ان يترأس عليهم وما يدخل على دينه في ذلك من عظيم الشر والفساد فكان لا يميل الى ما فيه رائحة تقدم أو رياسة حتى التقدم للصلاة ، بل كان يقدم لها من حضر غالبا وكذلك اذا خرج لا يترك أحدا من أصحابه يتبعه ويمشى خلفه لاسيما مع التعداد والكثرة بل يقدمهم أمامه اذا كانوا قاصدين جميعا محلا واحدا ومن أجل ذلك كان لا يمر في الشوارع العامرة لئلا يزدحم الناس للسلام عليه كما قدمناه .

وكان لا يتميز عن العامة في الملبس ولا يتفرد عنهم بشيء أصلا مما يتفرد به العلماء وأرباب المناصب والوجاهة فلا يلبس الكساء ولا البرنس ولا يركب

البغلة كما هو حال علماء المغرب ووجهائه قبل ظهور العربات ، بل وحال علماء المشرق أيضاً فكان لا يزيد على الجلابة التي يلبسها عامة الناس لا في الأعياد والمواضع ولا في سائر الأيام ولا يوافق على شيء من ذلك لانجساله أيضاً ولا يتصور ان يرى واحداً منهم متميزاً عن عامة الناس في شيء من الأشياء أصلاً وذلك كان حال النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح والعلماء العاملين حتى ظهر الفجار من العلماء الذين هم ليسوا على شيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فترخصوا في الترف والترفة وتوسعوا في مخالفة الشريعة والسنة محتجين هوى نفوسهم بالمصالح المرسله الهادمة للدين منمقين ذلك ومزوقين إياه لالتقاء الغبار في أعين العوام حتى لا يحتقروهم ويفسقوهم لمخالفة ظاهر الشريعة ولذلك كانوا شر من تحت أديم السماء قطع الله دابرهم ونصر الدين بهلاكهم والقضاء عليهم آمين .

وكان يكره التشبه بأهل الدنيا في الملابس والمعيشة وفراش البيت وكل ما فيه رفاهية وترفع على الناس فلا يلبس الثياب الرفيعة الجيدة ولا الرقيقة ولا ما فيه خيط واحد من الحرير ولا الثوب المزرر كالتفظان والفرجية ولا ما تفصيله وهياته من شكل لباس المترفين وهياتهم ولا يفعل ذلك بأحد من أولاده وإذا أهدى له أو لأولاده شيء منها تصدق به في الحال ولم يكن يفرش في الغرف والبيوت زرابي وسجاجيد أصلاً بل كلها مفروشة بالحصر ومراتب التبن إلا غرفة أو اثنتين فسكانتا بمراتب الصوف والحصر ولما ظهر النور الكهربي امتنع من ادخاله مع حرص الناس عليه في ذلك مدة تزيد على العشر سنين لأنه كان في بداية ظهوره من شأن الأغنياء والمترفين وما أذن بادخاله إلى بيته حتى عم جميع الناس غنيهم وفقيرهم وشريفهم ومشروفهم ولما بنى بيته وكان الواقف على البناء بعض أصحابه فعمل بمقتضى نظره زليجا في الحائط وشبائيك ذات أقواس منمقة فلما سكن بالدار ومرت مدة أمر بقلع تلك الشبائيك وإزالة الزليج من الحيطان حتى صار البيت في شكله كبيوت الفقراء وعامة الناس .

وكان يفضب غضبا شديدا إذا رأى من أحد أولاده ميلا لأبناء الدنيا في التشبه بهم والسير على منهاجهم لأنه كان لا يرى ذنباً أعظم من حب الدنيا والدخول في مداخلها والتطلع إلى أهلها ويقول لأولاده افسلوا ما شتمت فاني أرجو لكم رحمة الله إلا حب الدنيا وطلبها والتشبه بأهلها فانه لا يرجي لكم فلاح مع ذلك وكيف ينظر الله إليكم ويحكم ويفتح بصائركم وقلوبكم ملطخة بحب الدنيا التي هي أبغض شيء إلى الله تعالى ونحن لا نحب منكم مالا ولا خدمة وإنما نحب أن تكونوا رجالا نلتقى الله تعالى بكم في صحيفتنا وتبييضوا وجهنا مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بالعمل بالسنة واتباع طريق السلف الصالح لا بحب الدنيا والبحث عنها فان كل من في الدنيا حاله كذلك فأى فائدة للعلم والعمل إذا كنا من جماتهم وهذا من أغرب ما اختص به الشيخ رضى الله عنه وخالف به أهل عصره من شيوخ الوقت وفضلائه فضلا عن علماء الوقت الفجار الذين هم أشد الناس حباللدينا ورغبة فيها وحرصا عليها وعلى تعليم أولادهم ما يوصلهم إلى الدنيا ولو بذهاب دينهم وكفرهم وإلحادهم لا بآرك الله فيهم ولا في أولادهم فآخرب الدين إلا من جهتهم .

وكان شديد الكراهة لما فيه تشبه بالكفار ولو في الشيء اليسير ويبالغ في الزجر عن ذلك والنهي عنه ويتعجب من حال علماء مصر في التشبه بهم في لبس أحذيتهم وهيأة فراشهم ومساكنهم وفي الأكل بالشوكة والسكين وقص اللحي وحلقها ويقول ما شتموا رائحة العلم ولا وصل شيء منه إلى قلوبهم وإنما هم سامرة الشر والفساد يحترفون بالعلم ويأكلون به ويضلون من يقندى بهم لظنه أنهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومعاذ الله أن يكون ورثة الأنبياء مع ما هم عليه من هتك الشريعة وخراب الدين فكان لا يتصور أن يقطع أحد الخبز بالسكين على مائدته فضلا عن أن يأكل بالشوكة والسكين ولا يتصور أن يابس حاجة مما فيه تشبه بالكفار لولده الطفل الرضيع ابن شهرين فضلا عن فوقه ، بل والسكتب على كثرتها كانت عنده موضوعة وضعا عربيا

كل مجلد فوق الآخر إلى نحو عشرين مجلداً وكان دائماً يتعب في أخذ المجلد الذي يريد لا سيما إذا كان هو أسفل مجلد وطول مرارا أن يضع الكتب على الشكل الحديث كل مجلد قائم بنفسه لسهولة تناوله فأبى لما فيه من التشبه بالفرننج فبالك بما هو أكثر من هذا وأقرب شيها منه بأحوالهم ولما دخل بعض بيوت كبار العلماء ومشايخ الإسلام في مصر ورأى هيأته الفرنجية المنكرة كان يتمجب ويضحك من صنع الله بهم ولا ينقضى عجزه منهم ، ويقول لا أدري كيف يستجيزون هذا أو يرضونه لدينهم ولا من نبي دليهم يعتمدون في ارتكابه نسأل الله العافية .

وإذا كان العارف أبو الحسن ابن ميمون أنف في أواخر القرن التاسع كتابه غرابة الإسلام بين المتفهمة والمتفكرة بمصر والشام وما والاها من بلاد الاعجام وحكم فيه بكفرهم وردتهم ومرورهم من الدين فما بالك لو رأى هؤلاء المجرمين المتفرنجين بل هم والله شر من تحت أديم السماء كما ورد في السنة المطهرة .

فصل

وكان يكره الوظائف الحكومية وينهى عنها كل من يحبه ويأمره بالتباعد منها والتكسب بالحرفة والتجارة لا سيما خطة القضاء والشهادة فإنه كان يبالي غاية في الزجر عنها والتنفير منها ويقول لأن يبيع طالب العلم الفحم والخطب والنعناع ويدور به في الأسواق والشوارع خير له في دينه ومروءته من تولية القضاء والشهادة اليوم اقلية الشر والفساد على أهل هذين الخطتين بل كان ينهى عن مجالسة القضاة والعدول ويجعل مجالستهم دليلاً على فساد الأخلاق والتهور في الدين فقد أخبرته يوماً أنني رأيت بعض أهل العلم الموصوفين بالصلاح جالسا في دكان بعض العدول فصار يبدى عجبه الشديد ويقول كيف استجاز الجالوس معهم وهو يعلم حالهم بل نهى مرة بعض أتباعه عن

المرور من الشارع الذي فيه دكاكين العدول .

وجاء اليه مرة من يخبره بأن أحد أصحابه ولى رئاسة محكمة الاستئناف بطنجة كأنه يريد بشارة الشيخ بذلك فغضب وقال له تريد بشارتي بما يؤسف له ويحزن من أجله هذا شيء فيه اتلاف دين المرء وذهابه فلا يفرح به وجاء اليه مرة صهره يستشير في تولية منصب خليفة القاضي بتطوان إذ عرض عليه ذلك المنصب من أهلها وأبي أن يتقدم اليه حتى يستشير الشيخ لعلمه بكرامته لذلك فمنعه منه وأمره بالتدريس ووعده إن امتثل أمره أن يفتح الله تعالى عليه بالرزق من حيث لا يعلم وأن لا يحتاج طول عمره فكان كما قال .

وكان رضى الله عنه وقافاً عند الشبهات شديد التيقظ في شؤون الورع يتنبه لما لا يتنبه له غيره ويقف عند ما لا يظن بأحد الوقوف عنده من الدقائق والخصيات ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ويراجع أقوال أئمة المذاهب ويحيط بما فى الأمر من رخصة وعزيمة وتخفيف ، تشديد وعند ذلك يترخص فى الفعل والاذن لغيره ويرجع جانب المنع فيتأخر عنه وعن الاذن به وقضاياه فى هذا كثيرة جداً بالنسبة لأمور الحادثات والمخترعات الجديدة التى تحتاج إلى بحث عن حكم الله فيها بل التنبه لمسائل الورع كان من أخص أحواله وأهم الأمور عنده حتى كان ينبه الغام والنقيض والصونى لما كان الواحد منهم يظن أنه من أشد الأشياء موافقة للشرع وأنه لا محذور فيه أصلاً فإذا ما بين له وجه ذلك تعجب من دقة نظر الشيخ وغوصه على الحقائق فى هذا الباب وربما توقف من جهة التهمة وسوء الظن ويقول ان الفعل جائز شرعاً لا محذور فيه ولكن الله أمرنا أن نتباعه من مواقف التهم وأن لا نوقع المسلمين فيه وربما علم حكم الله فى المسألة من جهة الدليل من الكتاب والسنة ونصوص فقهاء المذهب ولكنه خلفائه على كثير من الناس لا يأمر به حتى يقول للمسائل مثلاً استصدر فتاوى العلماء حتى لا يكون هو مستأثراً بعلمه

ومعرفته وربما توقف في نفسه حتى يسأل العلماء وهو من أعجب الأحوال وأغربها بالنسبة الى ما كان عليه من الاطلاع الواسع في الفقه بحيث لا يكاد يشذ عن علمه منه فرع لا سيما بعد التصدي للبحث والاطلاع وتوقف في تجليد الكتب عند مجلد نصراني حيث لم يكن بالبلد مجلد مسلم فعرف حكم الله في ذلك من الدليل ووقف على أقوال الأئمة فيه ولم تطمئن نفسه دون استفتاء العلما فأمرني بارسال سؤال الى مفتي الديار المصرية وعالمها شيخنا الشيخ محمد نجيت وكتب هو رضى الله عنه الى مفتي الديار المغربية وفتاها سيدي المهدي الوزاني .

فكتبت إلى الأول ما صورته ما قواسكم أطل الله رعيكم في تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها عند مجلد كافر هل ممنوع كما يؤخذ من كلام بعض المالكية إذ قال يمنع بيع التوراة والانجيل للكفار وكذا إعطاء دراهمنا التي فيها اسم الله لهم لما في ذلك من إهانة اسم الله وكلامه أم هو جائز كما يستفاد من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل كما في الصحيح وفيها اسم الله وذكر آيات من كتابه أفيدونا بجواب كاف مبسوط بالأدلة الشرعية ولكم الثواب .

فأجاب بقوله اطلعنا على هذا السؤال ونقول قال قارىء الهداية أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين فما جاز للمسلم فعلة في ما كجازههم وما لا فلا اه وكتب الأصول والفروع مشحونة بأن الكفار في المعاملات كالمسلمين سواء لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكتب الأحاديث مملوءة بأنه صلى الله عليه وسلم استعان بالكفار في عدة أمور اذا علمت هذا علمت أنه يجوز للمسلمين أن يعاملوهم بجميع المعاملات من بيع وشراء واستصناع أهل الحرف منهم كما يجوز لهم ذلك مع المسلمين ولذلك لما كان مدار المعاملات على الدراهم والدنانير وكانت تلك في صدر الاسلام عليها تاملهم لم يستنكف المسلمون عن تداولها والمعاملة بها فيما بينهم وفيما بينهم وبين الكفار المتوطنين معهم

في دار الاسلام كما لم يمتنعوا من مبايعتهم واستصناعهم كما أن عبد الملك بن مروان لما ضرب الدراهم والدنانير في عصره كتب عليها بعض آيات قرآنية لسبب أمر مذكور في التواريخ تداولها الناس كافة وتعاملوا بها بلا فرق بين مسلم وذمى ومن هذا يعلم أن تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من الكتب المشتملة على بعض آيات من القرآن وبعض الأحاديث عند مجلد كافر أن هذا من قبيل الاستصناع واماما نقل عن بعض أئمة المالكية وهو قوله يمنع بيع التوراة الخ . فمثله ايضاً موجود في كتب الحنفية قال في شرح السير الكبير لا ينبغي للامير أن يبيع التوراة والانجيل والزبور من المشركين مخافة أن يضلوا به فيكون هو السبب في فتنهم واصرارهم على الكفر وذلك لا رخصة فيه وكذلك لا يبيع من مسلم وكذلك لا يقسمه بين الغائمين وأما الدراهم والدنانير فلا بأس بقسمتها وبيعها قبل أن تكسر ألا ترى أن المسلمين يتبايعون بدراهم الأعاجم وفيها التمايل والتيجان ولا يمنع أحد من المعاملة بذلك وإنما يكره هذا مما يلبس أو يعبد من دون الله من الصليب ونحوه اه . ولا شك أن هناك فرقا بين الاستصناع وتجليد الكتب لأن المقصود منه مجرد هذا العمل لا غير ، واما بيع التوراة ونحو ذلك فالقصد التمليك نعم لا يجوز ان يجلد القرآن لأن مسه للمحدث مكروه تحريماً او حرام لما فيه من مس الكافر له عند التجليد ولا شك في انه محدث اما حدثا اصغر او كلا من الحديثين هذا ما رأيناه والله أعلم اه .

وأجاب الثاني بقوله وأما تجليد النصراني للكتب فيظهر أنه لا بأس به إن لم يظهر منه مكروه في تجليدها لحل أمرهم على الطهارة في الأشياء التي يتناولها وقد تذاكرت مع بعض العلماء المشاهير هنا فقال لي لا بأس بذلك ويمكن لكم النظر فيها إذ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب .

وكان لاياً كل طعام الكفار ولا حلواهم وسممته مرة يقول من نعم الله على أنى ماذقت الشكولامة في حياتي ولما توجه إلى القاهرة مكث طول مدة السفر لاياً كل إلا الخبز والزبدة ولا ياكل ما يقدمه أهل الباور من الاطعمة الفاخرة

لاهل الدرجة التي ركب فيها ولا من المباحة مثل السمك المقلى والبيض
والخضروات ونحوها

وكذلك لا يستعمل دواءهم إذا مرض خوفاً أن يكون فيه خمر أو نجاسة
مع أنه كان يأمر غيره بالتداوى بينهم وتناول أدويتهم لكنه لا يستعمل ذلك
في نفسه وكذلك كان لا يترك في بيته آنية أو ثوباً فيه صورة ولو غير مجسمة
وكم أبدى عجبه حين زار بعض كبار العلماء بمصر ورأى في بيته انصاف صور
الرخام المجسمة كما كان يتعجب من لبسهم للقفاطين التي سداها قطن ولحمها حرير
ولا يتفق له ما يراه من أحوالهم مع العلم والعمل به

وكتب إلى مرة وأنا، لقاهرة بقول وتغييركم اللباس به حيث اضطررتم اليه
لعدم ملبوس المفاربة هنا كم لا بأس به ولو لكر ولا بد ولا بد اجتنب ما يترخص
به علماء مصر من الحرير الكثير الذي يستعملونه في ملابسهم فان ذلك من
أقبح ما يرتكبونه من رخصهم البعيدة من مناساة العلم والدين المحبوبة
للشارع اه

قال في النسمات لما ترجم لورعه رضى الله عنه كان قوياً في دينه محافظاً على أوامر
الشرع واقفاً عند حدوده آخذاً بالعزائم تاركاً للرخص لا يقدم على الأمور حتى
يعلم حكم الله فيها ولا يتناول من الأشياء إلا ما تحقق حليته واتضح حكمه
وبانت سلامته ولا يحوم حول ما وقع فيه التردد والشبه بل كانت جميع شئونه
مبنية على ما هو خالص من الشبه سالم من الاعتراض ظاهراً وباطناً وكان في
الظاهر متقيداً بمذهب مالك رضى الله عنه وفي حقيقة الأمر كان مجتهداً يأخذ
الأحكام من أصلها والحقيقة من عينها ومع ذلك فكان لا يخرج عن مشهور
المذهب لا في نفسه ولا في فتواه لغيره إلا لضرورة وذلك لكماله وتحفظه
وشدة ورعه وسلوكه طريق الجمهور الذي هو قول العامة من الفقهاء وكان
يتورع في جميع شئونه من أكل وملبس ومسكن وكلام وقد كانت تهدي إليه
أشياء من ما كولات وملبوسات فلا يتناول منها إلا ما تحقق سلامته من
الشبهة والحرام وما رأى فيه شبهة أخرجه وتصدق به في الحال وكان راسخ

القدم في هذا المقام لا تحركه الرياح العواصف ولا تعمل فيه المطامع ولا تستميله
الخطوط ولا تستفزها الرخص فما رأيت أحداً ممن اجتمعت به من علماء الوقت
وشيوخه وصلحاءه أعلى همة ولا أكمل ورعاً ولا أكثر عن الله فهما ولا أعظم
بالله استغناء ولا أشد له محبة ولحرمانه تعظيماً من سيدنا رضى الله عنه فلا يعول
في جميع أموره إلا على مولاه ولا يطالب حوائجه إلا من الله ولا يتوكل إلا
عليه ولا يستعين إلا به ولا يأخذ إلا من الله ولا يعطى إلا الله قد سقط
الكون من نظره وثبت الحق في مشهده وسره قل جاء الحق وزهق الباطل
إن الباطل كان زهوقاً

وكان لا يكثر من تناول الشهوات ولو كانت مباحة سالمة من الشبه والتعلل
ويبحث على عدم تناولها وعلى التقليل منها ويذم المسترسل فيها لاسيما إذا كان
من طلبة العلم وأهل الطريق بل يستدل بذلك على عدم انتفاع الطالب بعلمه
والفقيه بتصوفه وذكره ويتمعج من حال علماء الوقت وصوفيته في ذلك .

فصل

وأما زهده في الدنيا وبفضه لها وإعراضه عنها وعمما يقرب اليها فأمر
يعترف به الموافق والمخالف من المسلمين والنصارى رجال حكومة الدولتين
الفرنسية والأسبانية فقد ساكوا معه كل مسلك وعرضوا عليه من الأموال
ووسائل الحصول عليها ما يصير به أغنى أهل المغرب فما رفع اليهم رأساً ولا
أجابهم إلى مطلب ولا سكت عن المعارضة ونشر ما يقتضيه الدين من
الدعاية ضدّهم في الدروس العمومية والمجالس الخاصة والعامة والسعى في ذلك
بالأقوال والأفعال وبذل الأموال إلى أن أيس من المسلمين وتحقق من مراد
الله فيهم فعند ذلك لزم بيته وأقبل على شأنه وترك الأمر لله بدون معارضة
فجمع بين الشريعة والحقيقة وامثل أمر الله تعالى في الأول والآخِر وحرك
سلسلة الأسباب فاعلم أن مراد الله من خلقه في الوقت ما هم عليه ألغى مقاليد

التسليم وصار ينتظر ما يبرز من الحضرة الالهية بدون حركة ولا تسبب متمسكا
بعروة انتظار الفرج بالصبر عبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم
وقد قدم اليه مرة المندوب الاسباني أربعين الف ريال اسبانية ليوافق
على تولية بعض الظلمة الجائرين على القبائل الغمارية ، فقال له : لو ملأت لي
هذه الغرفة ذهباً ما وافقت على تولية رجل يظلم المسلمين ويسلب اموالهم
ويسفك دماءهم فازداد عظمة وجلالة في اعينهم حيث لم يرفع راساً لما قدموه
اليه من ذلك القدر العظيم الذي من كان يمتلكه في ذلك الوقت كان من
اعاظم الأغنياء ، لا سيما والرجل المذكور كان متولياً للحكم ، وانما كان
الشيخ ينازع في توليته ويطلب عزله من الحكم لفرط إذايته للمسلمين .

وخاطبته دولة فرنسا مراراً على يد سماسرتها بأنها ستمد له يد المساعدة
في المغرب أسره وترفع من شأنه على جميع شيوخ المغرب وتساعد على
نشر طريقته وكثرة أتباعه وتسهيل مصالحه ، فكان يجيب عن ذلك بالذم
الشديد لها والتصريح البالغ المنتهى في ذلك بما لا يستطيع احد سماعه
فضلا عن النطق به ، لا سيما مع سماسرتها الذين هم عندها بمنزلة الوزراء
وعظماء رجال الدولة لحقارة الدنيا في نظره وعلمه بدسائس فرنسا وما
تقصده وراء ذلك من القضاء على المرء وهلاك دينه .

واما السلطان عبد الحفيظ فلو اجاب رغبته الا كيدة في الاجتماع به
ولو مرة واحدة لا غناه ، وقدم اليه من كرائم الاموال ما لا يقدمه مالك مثله
فقد مكث ازيد من شهرين يتملق ويرغب ويتوسل بكل الوسائل فما اجابه
إلى ذلك ولا راعى فيه الوسائط والشفعاء الذين طال ترددهم اليه وإلحاحهم
عليه في الاجتماع لأخذهم الاموال الكثيرة على ذلك من عبد الحفيظ .

وكانت عنده رسوم معادن للفضة والحديد وانواع اخرى بالبلاد
الغمارية فخطبته بعضهم مراراً في مباشرة امرها مع الحكومة والشركات
فكان يجيب بأنه لا يرشد الكفار إلى معادن المسلمين ولا يكون السبب

في تملكهم إياها ، ولما كثر الالحاح والطلب عليه اضاع تلك الأوراق والرسوم .

وكان كثير من الفقراء يهدون اليه الأراضي ويكتبون له الاثلاث فيرد ذلك ولا يقبله كما أنه زهد في ميراث أبيه فما سأل عن شيء منه قط لا عن رقبته ولا عن إرادته من الزيت والحبوب وغيرها في أمثال هذا مما لم نسمع به عن أحد من أولياء العصر وشيوخه الصالحين فضلا عن دونهم من الدجاجلة المتمشيخين فقد اغتنى جلهم بالمغرب وبلغت رؤوس أموالهم الملايين وامتلكوا القرى والضياع حتى قال لي بعض الفضلاء يوماً وهو يحدثني عن غنى بعضهم أنه جمع من الدنيا ما لم يدخل يده جميع أسلافه من ظهور الاسلام الى اليوم بل لو جمع ما دخل يده جميع أسلافه لما بلغ نصف ما امتلكه هو وحده كل هذا زلوه بموالاة فرنسا وموافقها على أغراضها وخدمة سياستها وتثبيت قدمها في المغرب وتحكمها في رقاب المسلمين حتى صار شيوخ الطريقة بالمغرب كلهم جواسيس وعميون على حركات المسلمين العامة والخاصة نسأل الله العافية بمنه .

ومن زهده في الدنيا وحقارتها في نظره عدم اهتمامه بشؤون البيت ولوازمه الضرورية فكانت الأيدي الكثيرة كلها عاملة بما تهواه فكل يطبخ مايشاء ويأكل مايشاء ويأخذ مايشاء متى شاء فكان يحصل بذلك ضياع كبير فوق الحاجة في أمور المعيشة والأواني والملابس بما كان يمرض غيره للاطلاع عليه وهو لا يهتم بشيء من ذلك ولا يفكر فيه ولا يجعل لذلك التضضيع والاسراف حداً ولا يلقى له بالا كأنه غير موجود في البيت بل هو رضى الله عنه غائب عن كل ذلك مشتغل بربه هائم في مراقبة جلاله وشهود جلاله لا يتكدر للدنيا كلها لو خرجت من يده فضلاً عما هو في بيته .

ولما شرع في عمارة البيت لسكنائه كلف به أحد الفقراء وصار كلما يفتح الله به يدفعه له ولا يسأله عما دفع ولا ما بقي ولا يأخذ منه حساباً ولا يكلمه

في ذلك أصلاً ولا يأمر في البناء بكيفية ولا يشير الى حاجة ولا قدم اليه يوماً ليراه حتى تم ودخل يسكنه مرة واحدة ثم لما ضاق البيت اشترى دوراً كانت مجاورة له وأدخلها فيه بهذه الطريقة مع فقير آخر وهو رجل مسرف لا يخاف الله ولا يراقبه في خلقه فكان يصرف من المال الذي يدفعه إليه الشيخ لأجل البناء ما يشاء في أغراضه الفاسدة وشهوته الساقطة والشيخ يعلم بذلك فلا يرده عنه وعن المعاملة معه كما كان بل قال يوماً لمن كلمه في شأن ذلك من يوكل لا يخاصم نحن فوضنا إليه فلانحاسبه ولا نراقبه ثم لما طالت الشكاية وكثر الكلام من الناس أشرك معه بعض من كان يدخل اليه كل يوم بعيوب ذلك المكلف وجعل المال تحت يدهما معا فكانا يصرفان منه جميعاً في شهواتهما وأغراضهما وانضم اليهما ثالث فكان كذلك والشيخ رضى الله عنه لا يزيد على الضحك اذا اخبر بشيء من ذلك .

ودخل بيده مرة احد عشر الف ريال فأرسل اليه بعض الفقراء يطلب منه ان يدفعها اليه يتجر بها ويقلبها من سكة الى اخرى ثم يعيدها في اقرب وقت ، فكتت عنده سنتين وادعى أنه خسر في التجارة والنفقة فذهب جميعها ولم يبق منها قرش واحد . فتعجب الشيخ من حاله وحرصه على الدنيا وعلم ان الدنيا هي منتهى نظره وقصده من صحبتته فما كلمه بكلمة واحدة ، بل زاد فأرسل اليه خمسمائة ريال لبعضهم يقول له أمنها لنا عندك حتى يظهر ربها فادعى بعد أيام أنها سرقت من الدكان مع ان الدكان داخل وكالة لها باب عليها خفير ينام بالوكالة ساهرا على الدكاكين ، فما تكلم بكلمة مع ظهور كذبه كالشمس في رابعة النهار ، بل قال حيث إنهم لم يريدوا من صحبتنا الا الدنيا فدعهم يأخذون ما وجدوا منها فليست الدنيا كلها بشيء حتى نتكدر لأجلها . ووقائعه في هذا كثيرة جدا لا تكاد تحصى .

وفي أواخر عمره بلغ في الزهد فيها الى حد لا يمك عنده منها درهما واحداً أصلاً ويبيت دائماً وليس في داره قرش واحد . بل كان كلما فتح الله

بشيء أنفق في الحال ودفعه في الديون التي تترتب عليه لأصحاب الدكاكين التي يأخذ منها الثياب التي يتصدق بها ويكسوها من يقصده من القرابة والغرباء في اللباس وأصدقة الزواج ونحو ذلك أو للرجل المسكف بالنفقة على البيت وكان لا يسأله عن شيء ولا يعين له ما يشتري ، بل كان الرجل يشتري الطعام اليومي بنظره وشهوته والشيخ لا يعلم به ولا بما يطبخ حتى ينزل بين يديه .

وكان لا يحمل معه النقود أصلاً لا في الحضر ولا في السفر ، بل إذا كان مسافراً يدفع كل ما عنده لمن يصحبه في السفر ويكون مكلفاً بشئونه ، وكان لا يعمل في ثيابه جيئاً أصلاً حتى انه كان يضطر أيام تدريسه الدروس المتعددة متصلة في وقت واحد الى حمل ساعة معه ليعلم الوقت الذي ينهى فيه درس النحو ويشرع في درس الفقه وكذلك بعده درس الحديث فكان يضع الساعة في تسكة السروال .

وكان لا يأكل في اليوم إلا مرتين يفطر في الصباح ويتعدي بعد العصر ولا يتعشى لا في صيف ولا في شتاء . ويستقبح ثلاث أكالات في اليوم ويقول انها من السرف والشره .

وكان اذا أراد شراء ملبوس لا يختاره أيضاً لا ثوباً ولا لونا بل يكلف من يشتري له الثوب ويخيطه ويأتيه به فيلبسه كيفما أتى به على النحو الذي يلبسه وكان لا يكثر من الثياب ولا يزيد على ثوبين إذا اتسخ أحدهما دفعه للفسل ولبس الآخر .

وكان لا يتخذ اللباس للزينة بل للحاجة والضرورة فاذا كان عنده ثوب جديد حسن وعليه ثوب دونه أو بدا عليه أثر الاتساخ وأراد الخروج فاته لا ينزع الثوب الذي عليه ويلبس الثوب الجديد أو الغسيل من أجل مراعاة للناس بل يخرج بالثوب الذي اتفق عليه ساعة الخروج كيف كان .

وإذا أتى بلباس جديد أو حذاء جديد لبسه وتصدق بالذي كان يلبسه قال في النسمات وأما زهده رضى الله عنه فكان على التحقيق والحقيقة على نعمت ما وصف به المحققون من أهل الطريقة متخلقاً به ظاهراً وباطناً لا يتوسع في مأكله ولا يترفه في ملبسه ولا يتأنق في مسكنه بل كان آخذاً من الجميع ما تقوم به ضرورة الحياة مقتصرًا على ما لا بد منه نابذاً للملذوذات والشهوات فلا يعبأ بالدنيا وأهلها وزهرتها ومتاعها استوى عنده وجودها وفقدانها فإن وجدها أنفقها فيما أمر الله بانفاقها فيه بل آثر منها على نفسه وعياله وإن فقدتها رضى بمراد الله وفهم عن الله فيه فلا يفرح لوجودها ولا يحزن لفقدانها وهذا هو حقيقة الزهد كما قال ابن عطاء الله رضى الله عنه في التنوير للزهد في الدنيا علامتان علامة في وجودها وعلامة في فقدتها فالعلامة التي في وجودها الايثار منها والعلامة التي في فقدتها وجود الراحة منها فالإيثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة شكر لنعمة الفقدان وذلك ثمرة الفهم عن الله والعرفان لأن الحق سبحانه كما ينعم بوجودها ينعم بصرفها بل نعمته بصرفها أتم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه رأيت الصديق رضى الله عنه في المنام فقال لى أتدرى ما علامة خروج الدنيا من القلب قلت لا أدرى قال بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد اه .

وهكذا كان حال سيدنا رضى الله عنه إذا وجدها وفتح الله تعالى عليه بشيء منها أنفقته في وجوه البر والاحسان وآثر على نفسه وعياله فيوامى به الضعفاء وذوى الحاجات ولا يدخره ولا يسلك فيه مسلك الراغبين في الدنيا من صرفه في الشهوات والملذوذات بل كانت همته رضى الله عنه في الباقيات الصالحات .

وكان دائماً ينظر إلى الدنيا بعين الاهانة والاحتقار وينفر منها ويحذر من محبتها واستغراق العمر في طلبها ويقول إذا كان الفقير يتردد الى أبناء

الدنيا ويجالسهم لا يجيء منه شيء في الطريق ولا يطعم في وجود قلبه ولا في حلاوة الاقبال على ربه لان أبناء الدنيا أموات القلوب ومن خالطهم مات قلبه مع من تكون بحاله تكون .

وكان رضى الله عنه يقول مثل الدنيا مثل من يضرب بالحجارة فما يخطئه منها خير مما يصيبه .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً تصدق بما عنده وكان يأمر أزواجه وأولاده بذلك ويقول لهم إنكم لن تزالوا في سعة ونعمة وستر أحياء وأمواتاً ما فعلتم ذلك . ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ووعد به . فكان بمقتضى هذه السيرة الحسنة تترادف عاياه النعم الجزيلة والخيرات الجسيمة وتحفه العيشة الراضية الطيبة .

ومما يدل على صدق زهده في الدنيا اننا منذ جمعنا الله به وخالطنا ما يزيد على الثلاثين سنة ما سمعناه يذكر الدنيا الا بلسان الذم والاحتقار . وكان متبرياً من الدنيا وزهرتها وابنائها متصلاً بها بجسده منفصلاً عنها بقلبه وروحه . لا يدعى لنفسه ملك شيء منها بل يرى نفسه مستخلفاً فيه فيضعه بين إخوانه ويجعلهم شركاء فيه .

وكان يقول : الأخ الحقيقي هو الذى لا سر عنده مكتوم ولا مال مقسوم .

ومما يدل على زهده في الدنيا أيضاً اننا ما علمنا ولا سمعنا أنه تكلم على متروك أبيه وأجداده الكرام أو بحث عنه أو عرض بذكره داراً وعقاراً أو حبساً أو غير ذلك بل أفنى جميع ذلك وصيره نسياً منسياً كأن لم يكن وتركه لاخوته ينتفعون به . وبالجملة فزهد هذا السيد رضى الله عنه في الدنيا شيء كبير لا طاقة لنا باستقصائه كما لا قدرة لنا على معرفة ما كان عليه من حقيقته وانما أشرنا إلى هذا النزر القليل من زهده تبركاً بذكره اه .

فصل

وأما توكله رضى الله عنه فكان توكل كبار العارفين وأفراد الأمة
 الحمديّة الذين أطلعهم الله على اللوح المحفوظ فشهدوا فيه رزقهم وحصل
 لهم بذلك الاطمئنان التام كما قال العارف الكبير سيدى أفضل الدين رضى الله
 عنه : إن للعبد في أمر الاضطراب في رزقه ثلاث مراتب .
 الأولى : وهى التى تقع بها الطمأنينة لقلبه ويزول بها الاضطراب بما
 زاد على الجزء البشرى اطلاقه على الامام المبين الذى أحصى الله تعالى فيه كل
 شىء فان جميع ما كتب فيه لا يصح فيه تبديل ولا تغيير ولذلك سمي
 باللوحة المحفوظة أى من المحو والتبديل بخلاف ألواح المحو والاثبات فانها تقبل
 التبديل والتغيير . فمن رزقه الله الاطلاع على هذا اللوح اطمأن قلبه برزقه
 ضرورة وهو خاص بأكابر الأولياء . قال وإنما قيدنا زوال الاضطراب
 بما زاد على الجزء البشرى تبعاً للمحققين لأن حجاب الجزء البشرى لو
 زال بالكلية من الأولياء لما كان للأنبيا مزية عليهم كما أن الانبياء لا
 يصح لهم الاحاطة بجميع ما أحصى الله تعالى فى الامام المبين فلا بد لهم
 من الحجاب عن شهود شىء فيه لئلا يساوى علمهم علم الحق تعالى ولا
 قائل بذلك وغاية ما فى اطلاعهم عليه أن الله تعالى أزال عنهم الاضطراب
 ليميزوا عن غيرهم من أكابر العارفين .

المرتبة الثانية : أن يكون مطمح بصر العبد ألواح المحو والاثبات
 الثلاثمائة والستين لوحاً ومن لازم ذلك عدم الطمأنينة لقبول هذه الألواح
 التبديل والتغيير فلا يثق الولي بما يراه فيها .

المرتبة الثالثة : أن لا يكون له اطلاع على اللوح المحفوظ ولا على الواح
 المحو والاثبات كغالب الناس فمثل هذا لا يسلم قلبه من الاضطراب بغالب
 أجزائه ولم يزل مهتماً بأمر رزقه ليلاً ونهاراً ولكن من نعم الله تعالى على

أهل هذه المرتبة أن جعل اهتمام أحدهم برزقه مكفراً لذنوبه اه نقله العارف
الشعراني رضى الله عنه في القلک المشحون ، ثم قال وعلى هذا التقرير فما سلم
أحد من اضطراب قلبه في أمر رزقه سوى الأنبياء عليهم السلام ، وأما غيرهم
فان حفت أحدهم العناية الربانية تعطلت منه صفة الاضطراب عن الاستعمال
والا فلا بد من الاضطراب اه .

قلت : فكان الشيخ رضى الله عنه من أهل المرتبة الاولى ومن حفته
العناية الربانية فتعطلت منه صفة الاضطراب فكان شأنه في هذا الباب من
أعجب ما رآه الراؤون وأعرب ما يسمعه السامعون حتى كأنه من أعظم ملوك
الدنيا وأكابر أغنيائها لا يهتم برزقه أصلا ولا يفكر في أبوابه ولا يذكره
على لسانه مع أنه لا يملك ديناراً ولا درهما ولا داراً الا التي يسكنها ولا
أرضاً الا ما ورثه من أبيه وقد سامح فيه لآخوانه مع أنه شيء لا يذكر
بالنسبة لضعف البلاد وعظم نفقة الشيخ ولا يزرع ولا يتجر ولا له وظيفة
ولا مرتب ولا معلوم الا قدرا بسيطا كان يأخذه من الأوقاف في بداية
أمره وتدرسه مما لا يكتفى لمصروف وقت واحد فضلا عن يوم كامل فضلا
عن شهر كما هي حالة الأوقاف بالمغرب لضعفها وقلة فوائدها بحق أهلها ، بل
لفساد ولايتها واستئثارهم بها هذا مع ما كان في بيت الشيخ رضى الله عنه
من العائلة الكبيرة المؤلفة من أزيد من عشرين نفساً دون الضيوف من
النساء والرجال الذين لا يخلو يوم واحد منهم من اثنين وثلاثة الى عشرة
وعشرين ، ومع كونه لا يلتفت الى ما يحصل في البيت من إسراف وتبذير
مفرطين بحيث ما كان يستهلكه أهله من أنواع المطاعم ولو ازمها ضعف
أضعاف ما يستهلكه مثلهم في العدد في بيوت الأغنياء وأهل الدنيا ومع
كونه أيضا لا يدخر قوت أسبوع فضلا عن شهر فضلا عن سنة بل كل يوم
بنفقته وكثيرا ما يتفق أن يكون عنده من الضيوف ما يزيد على العشرة بل
والعشرين ويصبح وليس في البيت مطعوم أصلا ولا عنده كذلك دينار ولا

درهم وهو فرح مسرور غير مهم بشيء كأن خزائن البلد عامرة برزقه
وملكه وربما زجر من يذكر له ذلك أو يذكره بالضيوف بل إذا أصبح
دخل الى مكتبته وأقبل على المطالعة فلا تمر برهة حتى يفتح الله بكل ما يلزم
وأكثر منه وأحياناً إذا دخل الضيوف أرسل يستدين ما يلزم لطعامهم وربما
استمر على ذلك الحال الاسبوع والاسبوعين والشهر الكامل فإذا فتح الله
أدى ما عليه ومع كل هذا فكان أهله لا يأكلون الا اللحم والسمك
والبيض ونحو ذلك من فاخر الاطعمة التي لا يدركها كل يوم الا الاغنياء
وهذا هو الذي حير الناس في أمره حتى كانوا يظنون به الظنون الكاذبة
ويقولون ان الدول تنفق عليه لانه ما كان يتحرك في شيء ولا يسبح في
المدن والقبايل كما يفعله شيء خ الوقت ولا يخرج من بيته أصلاً مع هذه
النفقات الكثيرة وهذا أيضاً هو الذي كان يثير عليه حقد الدولتين الفرنسية
والاسبانية لان كل واحدة منهما كانت تتهمه بالميل الى الاخرى وخدمة
مصالحها وكونها هي التي تنفق عليه .

وقد اجتمع الشيخ مرة ببعض حكام الاسبان فقال له ذلك الحاكم نحن
يبلغنا أنك تأخذ الدراهم من الفرنسيين لتكون ضدنا فقال له الشيخ وهل
أخذ منكم دراهم قال لا قال فكذلك لا أخذ منهم لانهم يقولون أيضاً
إني أخذ منكم لا كون ضدهم فان كان زعمهم أني أخذ منكم المال حقاً
فيمكن أن يكون ما تقول حقاً أيضاً وحيث إنك تعلم أني لا أخذ منكم
شيئاً وأن زعمهم باطل فكذلك زعمكم أيضاً باطل .

وسأل مرة بعض كبار المتصدرين للشيخة بالمغرب بعض قرابة الشيخ
رضي الله عنه فقال له بكم من زوج يحرث الشيخ فقال له ما حرث طول
عمره ولا بزوجة واحدة ولا يملك مزرعة ولا ثورا ولا بقرة ولا بيتاً وانما
هو من المتوكلين على ربه فقال له هذا لا يمكن فان ما سمعته عنه من النفقات
الواسعة لا يتيسر الا لمن عنده على الاقل حرث أربعين زوجاً فأكثر فقال

له الواقع هو ما أخبرتك به وأنه لا يعلم من أسباب الرزق شيئاً فما كاد يصدق وتوقفاً مع العادة والأسباب ونظراً إلى حاله وحال أمثاله من الشيوخ والعلماء .

وقال بعضهم للشيخ رضى الله عنه مرة يا سيدى لو خفت من الناس الذين فى نفقتك فان الحمل ثقيل والوقت شديد فقال له ان السفينة لا يستقيم سيرها فى البحر وتأمين تلاعب الرياح بها حتى تكون عامرة مثقلة .

وبالجملة فحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب من أغرب الأحوال وأعجب الأوصاف لا بالنسبة إلى حال أهل الوقت وصلحاتهم بل وحال المتقدمين أيضاً من العارفين . فقد ذكر العارف الشعراى رضى الله عنه أنه كان له وقفية يأخذ منها ما يلزم للزاوية وأنه كان يدخر كل سنة نحو عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطاراً من عسل القصب وثلاثمائة أردب من القمح وأربعين أردباً من الفول وسبعة أردب من الأرز وخمسة وعشرين أردباً من العدس والجلبان وخمسة قناطير من التمر والخرنوب والتين وأشياء أخرى كالبطيخ الهندى كان يدخر منه نحو ألفى بطيخة وكان يأتيه كل سنة من الحطب ما يكفيه للطبخ طول العام إلى غير هذا من اللوازم والضروريات .

ومع هذا فذكر عن نفسه رضى الله عنه أن ذلك الجزء البشرى لم تتعطل صفة منه تماماً . أما الشيخ رضى الله عنه فقد سمعت إلى أى حد يبلغ اطمئنانه وثقته بالله مع عدم ادخاره لقوت الأسبوع فضلاً عن السنة .

قال فى النسمات : وأما توكله فكان على الحال الاكمل عند أهل الله تعالى لا يدبر ولا يختار منطرحاً على باب مولاه على الدوام والاستمرار مستسماً لامره معتمداً عليه فى مره وجهره فلا يهتم بأمر الرزق ولا يدبر ولا يسعى فيه لا لنفسه ولا لعياله بل كان يرى نفسه هو وعياله ضيوف الحق سبحانه يأكلون من مائدة رزقه ونواله متوكلاً على الله حق توكله

في جميع أحواله شدة ورخاء وعافية وبلاء لا يستدعى طبيباً إذا مرض ولا يستعمل في الغالب دواء وكان يقول في مرضه إذا قيل له نستدعي لك الطبيب . مرض أبو بكر فقيل له ألا نستدعي لك الطبيب فقال الطبيب أمرضني يعني الحق سبحانه وتعالى لأنه الطبيب الحقيقي أي هو الذي أنزل في المرض وهو الذي يعافيني حين يشاء لا غيره من المخلوقين وهذا مقام للمكمل من المعارفين بالله .

وكان دائم التبسم والبشر والوجه الطلق وإن كان متحملاً باطناً من الأحكام الجلالية والنوازل القهريّة والحملات البلائية عن الخلق ما لو نزل على شوامخ الجبال لدكت .

وكان لا يختار خالاً على حال بل كان مع مولاه كالميت بين يدي غامله . وكان يقول : العارف المحقق لا يختار مع الله شيئاً فلو أقامه في الشمس ما اختار أن يكون في الظل ولو أدخله السجن ما أحب أن يكون خارجه وذلك لفنائته عن نفسه وحظوظه وبقائه بربه وسكونه تحت مجاري أقداره اه .

فصل

وأما السخاء فكان منقطع النظر فيه لا يعظم في عينه شيء يعطيه من مال وأرض وعقار وكتب وثوب وطعام وغير ذلك بل كان عطاؤه للألف كعطاء غيره للقرش الواحد بل أهون من ذلك بكثير فإن الدنيا لم تكن تساوي في عينه شيئاً فكان لا يقيم لها وزناً كما تعرف ذلك مما تقدم في زهده وتوكله ويكفيك أنه كان يستدين ليعطى سائله بل ومن يرى احتياجه دون أن يسأله .

فكان في غالب أوقاته مديناً لأصحاب الدكاكين الذين يبيعون الثياب

والأقمشة والأحذية يأخذ من كل واحد ما عنده ويعطيه للقاصدين والمحتاجين لاسيما
أواخر عمره فإنه مكث سنين وأعواماً لا يأتي عليه فيها يوم لا يكون مديناً
لهم مع أنه دائم الدفع لهم حتى توفي وترك أزيد من عشرة آلاف ريال
وكان يقول من استدان فليستدن على ربه فإنه لا بد أن يؤدي عنه .

أما إذا دخلت بيده دنيا كثيرة فإنه كان يفرقها في الحال كما كان النبي
صلى الله عليه وسلم يفعل وكما وصف به صلى الله عليه وسلم المهدي يحنو
المال حثياً ولا يعده عدداً وقد أعطى مرة رجلاً ثمانمائة ألف ريال اشترى بها دارين
أو ثلاثة وأعطى آخر أزيد من خمسة عشر ألفاً أما الألف والخمسمائة والمائة
عما كان يتيسر لديه فغير داخل تحت الحصر ما أعطى من ذلك

وكذلك كان يجود بأحب الأشياء إليه وهو الكتب حتى إن بعضهم اجتمع
لديهم مما أعطاهم من الكتب ما يكفيهم في الفنون التي يعرفونها من نحو وفقه
وحديث وتصوف وغيرها

وبالجملة فكان في الكرم من الطراز الذي يضرب به المثل وتذكر أخباره
مدونات الأدب والتاريخ.

قال في نبذة التحقيق وأما سخاؤه وكرمه فحدث عن البحر ولا حرج فقد
ثبت عندي من ثقات أصحابه وغيرهم حتى من المنحرفين عنه أنه كان لا يمسك
قوت يوم لوفده وربما استسلف ما يعطيه لمستحق وهذا خلق فيه على ما باغنى
مندشب وقد كان في بدايته على أثر دروده لطنجة يهديه أهل الفضل خصوصاً
المنتسبين إلى طريق سلفه فلا يمسك من ذلك شيئاً غالباً وساعة السرور عنده
هي التي يبذل فيها ما بيده لغيره

حكى لي من أعتد صدقه من أحبائه أنه رأى عليه في بعض الأيام جلابية
ظهر عليها اثر القدم فاشترى له أخرى وأتاه بها قال فبينما أنا معه بالطريق نظرت
إلى يده فإذا الجلابية ليست معه فسألته عنها فقال أعطيتها لفقير طلبها مني قال
فذهبت في الحين واشتريت ثوباً وخطت له منه أخرى ثم جئت بها إليه

وألححت عليه أن يلبسها في الحين فأجاب سؤالي فاستبشرت بذلك ولكن بعد يومين رأته عاد إلى القديمة فلبسها فسألت عن السبب فقيل لي خرج من الدار فلقيه غريب ادعى أنه شريف وتبع السيد يسأله إياها فساقه معه إلى الدار وخلع الجلابة فدفعها إليه ولبس القديمة

وجاء رجل يشتكى إليه بعض فقرائه وهو من الأشراف قائلا إنه اشترى منى زربية بثمن وذكر قدراً له بال وقال انها لكم ووعد أن يأتي بالثمن فلم يفعل فدخل إلى الدار وأخرج له ما كان حاضرأ عنده ووعدته بالبناقى مع أنه لا علم له بذلك ولا أمر بشراء الزربية وهذا خلق لا يعطيه الله تعالى إلا أحب الخلق إليه وبه وبأمثاله كان لهذا السيد الجليل مكانة عظيمة في نفوس الناس لا سيما المنتسبين .

وحضر يوماً الذكر مع أصحابه فتواجد حتى سقطت عمامته فبيعت بالمازادة بين الفقراء بأكثر من ألف ريال عملاً بقاعدة الصوفية في بيع الثوب الخليع حال التواجد فما أخذ من ذلك المال قرشاً واحداً بل تبرع به على الفقراء إلى غير ذلك مما هو كثير ولا شك أن أمره قائم بالله وقد شاهدنا من أحواله ما هو غريب وعلى الأخص مروره وانسراح صدره حيث تكون يده فارغة فيعد ذلك من عظيم نعم الله عليه وهذا مقام عظيم لا يقوى عليه إلا من قواه الله ثم إنه لا يرى فضلاً فيما يحسن به ولا يعظم في عينه بل لا يراه إلا قليلاً وان كان في الواقع كثيراً بل الكثير والقليل عنده سواء كما شاهدنا ذلك من حاله .

ودخلت عليه يوماً فالتفت بيده جزءاً من تفسير السيد محمد صديق حسن خان القنوجى أحد أمراء الهند في وقته فلمح منى أتى استحسنته فلما عدت لمنزلى وجهه إلى بتمامه وهو في أربعة مجلدات بطبع الهند وهو قابل الوجود بالمغرب كما أكرمنى مرة أخرى بكتاب مطالع الزهراء في نسب بنى الزهراء وهو بخط ملوكى جليل وهو للعلامة النسابة سيدى الزكى العلوى ألفه لقريبه

السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام وهذا المؤلف هو المادة العظمى والعمدة الكبرى لابي العلاء الفضيل المتوفى في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف في كتابه الدرر البهية في أنساب الحسنية والحسينية المطبوع بفاس في مجلدين ١ هـ .

وقال في النسمات وكان رضى الله عنه على حال عظيم ووصف كبير في الكرم والسخاء والبذل والايثار قد بلغ في ذلك المنتهى ووصل إلى الدرجة القصوى يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ولا يلتفت إلى ما أعطى ولا يرى له قيمة لما كان عليه من الزهد في الدنيا والاعراض عنها والنظر إليها بعين الاحتقار قد استوى عنده ذهبها وترابها .

وكان لا يرد سائلا سأل شيئا كأننا ما كان ان كان ذلك موجودا عنده وإن لم يكن عنده استدان واعطى أو وعد السائل ووفى بالوعد وهو في كل ذلك يرى المنة والفضل للسائل .

وكان يطعم الجائع ويكسو العريان ويعين المدين ويفيت الملهوف وكان الجرم الغفير من الناس معدودين في عياله وتحت نفقته واحسانه لا سيما أهل تجمكان من الشرفاء وقرابته فانهم كانوا يتواردون عليه في أغلب الأيام فيسد خلتهم يشبع بطنهم ويسترابدانهم ويزوج عزبهم ويدفع اصدقتهم ويدر عليهم الرزق الواسع ويتوسط في قضاء حوائجهم بجاهه مع الحكام مراسلة ومكاتبة ، فكان هو المتكفل بجميع شئونهم ذكورا وإناثا صغارا وكبارا .

وكانت مائدته على الدوام مبسوطة للصادر والوارد وقلما يمر عليه يوم من غير ضيوف فقد كانت تتوارد عليه الجماعات من الفقراء وغيرهم من أقطار مختلفة للزيارة وغيرها فيكرم نزلهم ويحسن ضيافتهم ويطعمهم الطعام الجيد الواسع ويجالسهم ويسامرهم بالمذاكرة في العلوم والمعارف العجيبة والأسرار

الربانية والفوائد الغريبة في كل فنون ويصبر نفسه معهم طول اقامتهم فلا
 عمل ولا يفجر حتى يغادروا حضرته اهـ . وكان اطعامه للضيوف في
 الافطار يبتدىء من وقت الضحى ولا ينتهى إلا الى ما بعد الظهر لتوارد الضيوف
 واحدا بعد واحد وجماعة بعد أخرى بحسب الوصول من البر والبحر في
 الاوقات المختلفة وكلما وصل ضيف قدم له الطعام ثم يبتدىء طعام الغداء من
 قريب العصر إلى ما بعد العشاء بكثير .

وكان شديد الاهتمام بالضيوف والاعتناء بشأنهم فاذا قدم ضيف أو
 ضيوف لا يهدأ له بال ولا يستريح في مكانه حتى يطعموا ويشبعوا ويشربوا
 الشاي وكان يأمر الخادمت أن لا يدخان الطعام إلى الضيوف حتى يمررن
 عليه به في محله ليراه خوفاً أن يكون قليلا لا يكفي أو غير مناسب للواردين
 وربما وقف ينتظر وروده من المطبخ أو يستعجل دفعه إليهم خوفاً من
 التأخر والعطلة .

وكان لفسرط كرمه وجوده يحب الكرماء والاجواد على أى حالة كانوا
 ويرجو لهم الخير العظيم من الله تعالى ويعنى بشأنهم ويفرح بهم غاية الفرح
 ويثنى عليهم ولو كانوا على غير قدم الاستقامة ويقول إن السخى محبوب عند
 الله تعالى ولا بد أن يرحمه الله ويحتم عليه بخير إذ وضع فيه هذا الوصف
 الحسن الجميل ، ويستشهد على ذلك بالأحاديث الواردة في فضل السخاء
 والأسخياء .

وكان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا مع أن العلم يقتضى
 العمل به وقد أمر الشرع الشريف بالسخاء والبذل والايثار وذم البخل وحب
 الدنيا أشد الذم وكان يقول على سبيل المباشطة ثلاثة من عجائب الدنيا العالم
 كريم والحاج صادق والحمار أحمر .

وكان لا يطالب أحداً بحق له عليه بالغاماباغ بل اذا جاء بما عليه أخذه والا

لم يخاطبه فيه أصلا فكان يعطى بعضهم الشيء يبيعه من كتاب وغيره فيأخذ ثمنه أو نصفه فلا يكلمه في ذلك ولما حج توقف غالب من كان في رفقتيه لإتمام نفقة الحج فاستقرضوا منه وبما يرجعون إلى وطنهم فما أدى من الجماعة إلا اثنان أو ثلاثة والباقى لم يدفع ما عليه فما كلم واحدا منهم إلى أن لقي الله ولما توجه إلى الحج اكرتري داره التي كان يسكنها رجل من الأيمان الأحبة فاستمر فيها بعد رجوع الشيخ ثمانية عشر عاما ما دفع كراء ولا خطر ذلك له ببال واشترى دارا في قرية كان نازلا بها مدة شهر فلما سافر تركها لفقرائه من أهل تلك القرية لتكون زاوية لهم يجتمعون فيها لذكر الله تعالى فتقدم واحد منهم وباعها وأخذ ثمنها لقضاء دين كان عليه فما كلمه ولا سأله عن الدار بعد ذلك وهو أيضا من الناس الذين استدانوا من الشيخ بالحجاز فلم يدفعوا ما عليهم وكم لهذا من نظير بل غالب معاملاته كانت من هذا القبيل وكل هذا ناشئ من سقوط الدنيا في نظره مع الكرم والحلم وعظم حق المؤمن وأخوته عنده فانه كان من أشد الناس مراعاة لحقوق الأخوة والصحة يستهين في جانبها بكل شيء ويترك من أجلها كل حق من حقوقه وحقوق عياله ويذكر دائما الحديث إن الله يسأل عن صحة ساعة.

وكان يعطى المحتاج من غير سؤال ولا ظهور أثر الحاجة عليه ، بل كان يفعل ذلك كسفا وفراصة فكثيرا ما يرسل للرجل شيئا وهو في بيته من غير أن يكون ذلك الرجل معروفا بالسؤال والاحتياج فيوافق ذلك منه ساعة الحاجة والضرورة إلى القدر المرسل من الشيخ رضى الله عنه وكذلك يأتيه بقصد الزيارة فقط فيبادره بالسخاء من غير سؤال ولا طلب .

وحدثني الشريف محمد نور الدين قال كنت مع الشيخ يوما فجاء لزيارته بعض العلماء من أهل البادية فعادته الشيخ مدة وسأله عن بعض كتب كان جلبها من القاهرة أيام قراءته بها ثم لما استأذنه للخروج قال له اصبر فقام

ودخل الدار وأتاه بعشرة ريال وقال خذ هذه هدية منا فصار الرجل يقبل يده ويقول أشهد أنك ولي لله تعالى فوائه ما جئت إلا لهذا القدر احتجت إليه ولم أجد من أطلبه وغلبني الحياء أن أطلبه منكم .

وكان إذا أهديت له هدية ومعه جليس شاركه فيها أو دفعها إليه بتامها وهو إلا أكثر من حاله سواء كانت الهدية كتاباً أو ثوباً أو مالا وسواء كان الحاضر فقيراً أو غنياً محتاجاً أو غير محتاج ، بل كانت ترد إليه الكتب التي أوصى على شرائها من ماله من مصر أو فاس فاذا أدخلت إليه الخادم الكتاب من البريد وصادف أن يكون معه أحد من أهل العلم دفعه إليه ولو كان ذلك الكتاب موجوداً عند ذلك الزائر .

وقال صاحب حادي الرقيق كنت مع الشيخ يوماً فجاء فقير من فقرائه وهو عروس قد تزوج على يد الشيخ فأعطاه أربعة ريال هدية فرمى لي بريال منها وقال الجليس شريك فجعلته في صندوقي تبركاً به فكان سبباً في ادرار الرزق على ولا زلت والحمد لله في سعة من ذلك الوقت اهـ .

فصل

وأما الحلم والعفو والصفح والاحسان إلى المسيء فهو فرد زمانه فيه على الإطلاق لا يوجد في الدنيا من يدانيه فيه فضلاً عن يمانه أو يساويه فقد كان لا يتصور الانتقام لنفسه ولا يخطر له ببال ولا يعرف الغضب لنفسه وحقوقه أصلاً سواء أؤذي في نفسه أو عرضه أو ماله أو ولده أو خادمه أو قرابته وسواء أقل الشخص من الأذى أو أكثر أو بالغ أو قصر أو دام طول حياته أو اقتصر على برهة من الدهر بعيداً كان أو قريباً ضعيفاً كان أو قوياً كل ذلك عنده في الحلم والعفو والصفح عنه وإكرامه واحترامه واعظامه والبر به سواء فما كان مع من يبغضه ويؤذيه ويسعى في هلاكه إلا كما يكون

الولد البار مع أبيه ، بل ما كان يبالغ في الاحترام والمراعاة ويتحمل في ذلك المشاق غالباً إلا مع هذا النوع لأنه كان يعلم من المحب الصادق ثبوت المودة واخلاص المحبة الموجبة لسقوط الكلفة فكان يقوم بمحقوق الأخوة والمحبة على قدر مقامه وما أكرمه الله به من جميل الأخلاق لکن لا يتكلف فيها كما يتكلف للعدو المبغض الحسود فإنه لا يتأخر عن مقابله ولو كان مريضاً ولا يصرفه إلى وقت آخر ولو كان مشغولاً ويبسادر إلى قضاء مطالبه واجابة رغبته من توسط وشفاعة وكل ما أتى اليه من أجله وحكاياته ونوادره في هذا الباب لا تدخل تحت الاحصاء والمد لأن غالب من كان يعامله من أهل طنجة هم من هذا القبيل لكثرة حسدهم وعداوتهم وشدة بغضهم ونفورهم من أهل الفضل .

لا سيما الشيخ رضى الله عنه فانهم ما تركوا من اذائته إلا ما لم تصل طاعتهم اليه وقد ذكرنا في فصل احترامه ومحبته لأهل العلم وفصل احترامه ومحبته لأهل البيت وغيرها حكايات من هذا القبيل .

ونورد في هذا الفصل بعض البعض مما لا يزال بذكرنا وهو قطرة من بحر ومثال معرف لما وراءه ولما كان عليه الشيخ رضى الله عنه في هذا المقام .

فمن ذلك أن أحمد المرينسى الطنجي وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء وله حظ من العلم وتظاهر بالصلاح دسه الفرنسيون عندما حصل الخلاف بينهم وبين الشيخ وادعى أن الفيرة الايمانية وحب الانتقام والتظاهر بالعداء للكفار حثه على مخالطة الشيخ والكون من جملة أصحابه مع انه تجانى الطريقة وهم قوم لا يرون الفضل في غيرهم وغير طريقتهم ويغضون كل الطرق الحققة إلا ذوى الفضل والعقل منهم فصار يلزم مجالسه ويرد اليه كل يوم صباحا ومساء ولا يفارقه إذا خرج لدعوة دعى اليها او غير ذلك ، بل صار ألزم له

من ظله ثم انتقل من دار سكناه البعيدة الى دار بجانب دار الشيخ تظاهرا منه بفرط الميل والمحبة والغرض من ذلك مراقبة الحركات والسكنات والوارد والصادر وكان كلما قابل فقيرا من الفقراء مديده الى حزامه فان وجد عنده مسدسا قال له هكذا الرجال وهكذا ينبغي أنى من أى شكل هو وان لم ير عنده سلاحا لومه على ذلك ووعظه بالقرآن والحديث وبالغ في ذلك تحريضا على شراء السلاح واطهارا للغيرة والايمان والواقع أنه يحصى من معه سلاح من الفقراء وما نوع السلاح الذى مع كل واحد منهم ويرفع ذلك الى أسياده فاعتبر به الفقراء كافة وألقوا اليه مقاليد أسرارهم وصاروا يقولون عنه جبل الايمان والواقع أنه جبل الكفر والنفاق والجاسوسية وغرهم في ذلك لحيته البيضاء وسنته وهديه وعلمه ومذاكرته بالقرآن والسنة وتقربه من الشيخ الذى كان لا يفارقه أكثر أوقاته وكان يكافئه ببعض المهام ويرسله شفيحاً لدى الحكام لا سيما الذى أرسله جاسوسا وكان الواسطة بينه وبين الفرنسيين فكان الشيخ رضى الله عنه يرسله اليه ظاهرا في قضية أو شفاعة والواقع أنه كان يساعده على غرضه باطنا ويجعل له السبيل للاجتماع مع القائد الواسطة ليرفع له ما رآه من أخبار الشيخ والفقراء مما هو حق وباطل وصدق وكذب على عادة الجواسيس فاتفق أن عزم الشيخ على السفر الى تطوان لقضاء بعض الاغراض المتعلقة بالقبائل الغمارية ومقابلة قوادها ورجالها بتطوان وعزم هذا الجاسوس على مصاحبته كما هو حاله فلما كانت الليلة التى صبيحتها سيكون السفر عقب صلاة الصبح بينما بعض الفقراء مارا في منتصف الليل على باب دار القايد ابن عبد الصادق إذ رأى المرئسى خارجا من الدار متقنعا مختفيا فلحقه الرجل ليتحقق منه فسلم عليه فأبلس ولا أدرى بم اعتذر له ثم بعد صلاة الفجر جاء إلى الشيخ وأخبره الخبر وكان الرجل من قرابة الشيخ فقال له الشيخ رضى الله عنه نحن نعلم ماهناك ولكن استر الرجل واكتم أمره لا تذكره لأحد من

الفقراء وكان قبل هذه المدة أرسل إليه خفية بعض كبار الحكام المسلمين الذين فيهم غيرة يقول له لا تغتر بالمرنيسى فانه جاسوس بواسطة القائد ابن عبد الصادق فما زاده كل هذا إلا اكراما وإجلالا وبرا واحتراما حتى صار يرسل إليه وقت الطعام ليتناوله معه ومع ضيوفه وصار يشتري له الأضحية في العيد ويتحفه بالهدايا الثمينة من منبوس وغيره وترتب عليه مرة دين كبير فاداه عنه ، كل ذلك وهو ظان أن أمره مستور عن الشيخ والشيخ متحقق من حاله وعارف بأمره من طرق متعددة إلى أن أراد الله فضيخته وهتك ستره في قضية طنجة المشهورة التي انفردوا بها بين العالم بأسره وهي اجتماعهم عن بكرة أبيهم باذن من القائد عبدالسلام بن عبدالصادق خادم الفرنسيين وشهادتهم في عريضة قدموها للسلطان ظناً منهم أنها ستكون السبب في القضاء على الشيخ وابعاده من بلدهم التي لم يألفوا فيها رؤية الفقراء والعلماء والفضلاء فضاعت صدورهم من ذلك وأحبوا البقاء على ما ألفوه فكان المرنيسى المتظاهر بعداوة الفرنسيين نحو السبع سنين والقائى بزعمه وتصنعه في الشيخ والفقراء وخدمة الدين من أول الواضعين أسماءهم في العريضة فلما انقض المجلس جاء جماعة من الشاهدين الواضعين أسماءهم بكل وقاحة ونذالة إلى الشيخ فأخبروه بما صنعوا كالمعتدين بأنهم فعلوا ذلك خوفا من القائد والخروج عن دين أهل البلد وأن من جملة من وضع اسمه المرنيسى الذي كان يقال عنه جبل الايمان ثم بعد برهة جاء هو يجرى على عادته ونفاقه يسب أهل طنجة وقائدهم الفرنسي وما فعل من العريضة ففاجأه بعض الفقراء بالبواب قبل أن يطلع إلى الشيخ بأنه قد سبقك فلان وفلان وأخبروا أنك من جملة الواضعين أسماءهم فقال نعم لما عرضوا على تلك العريضة وقرأت ما فيها كتبت : هذا بهتان عظيم فقالوا له لو كانوا صبيانا يلعبون لما استطعت أن تكتب لهم هذا فكيف بقائد البلد وجميع أهلها وسيرفع ما كتبوه إلى السلطان ثم حضر

أيضاً جماعة آخرون فصرحوا بأنهم لما أنزلوا خطوطهم رأوا خطه بالموافقة ولم يروا ما قال فعند ذلك أنزل الله في قلبه الدهش والرعب والخوف من الفقراء فصار الشيخ يطمئه ويقبل عذره ويوجه فعله وهو في كل ذلك غير آمن ولا مطمئن بل فارق البيت الذي كان فيه بجوار بيت الشيخ وطلع إلى بستان بعيد من البلد واختفى به ، ثم لم تطمئن نفسه حتى خرج من طنجة وقصد مدينة الرباط يسكنها ونفاه الله تعالى من غير ناف معاملة له بما قصد به الشيخ كما نفى القائد صاحبه الذي لا يزال منفيًا إلى الآن ، أما المرئسي فأنزل الله به من الذل والمهانة والفقر والحاجة ما يستحقه المنافقون أمثاله إلى أن مات وهو جالس بحمام وشتت الله شمله وقطع دابره من طنجة نسأل الله السلامة والعافية من النفاق والكذب والخيانة وعداوة أهل الله ورزقنا حسن الفهم عنه آمين .

ومن ذلك أن رجلا يعرف بالحجراوى أرسله بعض الظاهرين في الوقت بالزعامة والتقدم واردة الوصول إلى المملكة ليقتل الشيخ لأنه كان يظن أن أمره لا يتم مع وجود الشيخ الذي كان دائما يعارض في ولايته على القبائل لا سيما القبائل الغمارية لفرط جوره وظلمه حتى كان يقال فيه حجاج المغرب فجاء هذا الرجل وادعى أنه فر من ذلك الظالم الذي أراد قتله فأواه الشيخ وأزله بالسباب مع الفقراء الملازمين وبقي مدة يتحين الفرص ثم لما طالت به المدة أجرداراً قرب منزل الشيخ وسكنها ثم صار يختفى يومين وثلاثة يذهب فيها إلى صاحبه ثم يعود والشيخ على علم من ذلك وهو ينفق عليه ويواسيه إلى أن سلط الله عليه رجلا ضربه بخنجر عدة ضربات أثنى بها جراحا فمضى وتغيب فافتضح وعرف حاله بورود من أخبر بحقيقته فلم يعد إلى أن مات .

ومن ذلك أن عبد الكريم بن ادريس الطنجي كان من عدول طنجة وأبناء أعيانها وكان من عداوة الشيخ والمجاهرة بها على ما عليه أمثاله فأكثر

من شهادة الزور وارتكاب الجرائم فطرد من الشهادة فافتقر ومساء حاله ثم صار يتردد على الشيخ فيواسيه ويكسوه فلما اشتهر بكثرة تروده اليه ومجالسته اياه جعلته الادارة جاسوسا يأتيها بأخبار الشيخ فكان يفترى عليه ويلصق به من الجرائم السياسية ما يناسب عداوته الباطنية وقلة دينه الظاهرة ثم صار يصرح بذلك للشيخ ويقول اننا نأكل الخبز بالكذب عليك فيقول له الشيخ لا تؤذ أحدا من المسلمين ولك الاذن منا أن تنسب إلينا ما تشاء وجاء إليه يوما فكساه جلابة جديدة اشتراها من دكان وألبسه إياها فخرج بها وذهب إلى الادارة ، وقال لهم الآن جئتم من الشيخ تركته وقد جاء إليه السفير الفلاني وأبرم معه كذا وأمارة ذلك انه كساني هذا الثوب وجاء إليه يوماً آخر يطلب منه ان يكتب له كتابا لرئيس الجواسيس ليزيد له في أجره الجاسوسية فكتب له ذلك ففرح بالكتاب الرئيس المذكور ورفع من مرتبه وكلما ازداد الشيخ إليه إحسانا ازداد هو إليه والى دأبرته إذابة واستمر معه على حاله الى ان لقي الله وبقي الرجل يعامل انجاله بما كان يعامل به الشيخ نحو اربعة اعوام إلى ان جن وتقل إلى المارستان ومات به على شر الأحوال ووقع يوم ثالث دفنه ما فيه عبرة وذلك انه اتفق أن مات رجل يوم موته هو لكنه دفن بعيدا عنه في مقبرة أخرى فلما كان يوم ثالثة أرسل بعض قرابته شيئا من الطعام لحمة القرآن ليقرأوه على قبره ويأكلوا الطعام فأخذه الحاملون إلى قبر ذلك الرجل الذي مات معه وأنزلوه عنده فاجتمع عليه الطلبة وقرأوا وأكلوا الطعام وعند فراغهم منه وصل طعام صاحب ذلك القبر من عند أهله فأكلوه أيضاً وقرأوا عليه ثانية وهكذا صرف الله عنه بركة قراءة القرآن العظيم عند قبره .

ومثله رجل يسمى عبد السلام كريبش قر به الشيخ وأحسن اليه وآواه نحو سبعة أعوام ثم تعلق به أن يتوسط له في وظيفة مع الحكام ففعل ثم صيرو جاسوسا فأتى إلى الشيخ ما لا يتصور من أنواع الاذابة والافتراء ولا يزا-

حاله كذلك مع أنجابه إلى اليوم قطع الله دابره وعجل بهلاكه وراحة المسلمين من اذابته .

ومثل هؤلاء من الجواسيس الذين كانوا يتواردون عليه ويعاشره ويحاسبونه وينتفعون به يزيدون على الحسين ومنهم من كان يباسطه الشيخ ويصارحه بذلك ويقول له لا تهول من هذا بل اشتغل وخذ من الكفار ما يعود عليك وعلى عيالك بالنفع بشرط أن لا تؤذى مسلماً ولا تكذب على احدغيرنا ولو لا الحياء من الله تعالى واردة الستر على هؤلاء لسمينا منهم جماعة لا يزالون على حالتهم ومنهم من أنزل الله بهم عقابه وصرفهم عن هذه البلدة ثم مصرف وإلى الله عاقبة الأمور .

ولما رحل إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة كتب في اليوم الذي أصبح فيه بالقاهرة رجل رحمانى يدعى أنه وزانى مقيم بالاسكندرية مقالا في جريدة نسب فيها الشيخ رضى الله عنه إلى أمور قبيحة يريد بذلك اسقاط منزلته عند المصريين ولم تمض ساعات على ظهور المقال حتى عرف الشيخ أنه للرجل المذكور ثم إنه بعد يومين شد الرحلة من الاسكندرية لمقابلة الشيخ والسلام عليه فأكرمه وفرح به غاية كلما كان يتردد اليه طول إقامته بالقاهرة ثم إن الرجل نزل الى الاسكندرية ومرض فلما نزل الشيخ اليها فى طريق عودته الى المغرب سأل عنه فقيل له انه مريض فقال لا بد من عيادته فذهب اليه يعود مع أنه لم يسبق له به معرفة ولا رآه قبل هذه المرة التى فاتحه بالاذاية قبل أن يجتمع به ومن مرضه ذلك كانت وفاته ساعه الله ورحمنا وإياه .

وذهب مرة بعض القضاة الذين كانوا يجاهرون بعداوة الشيخ الى الفرنسيين وقال لهم كيف شوشكم أمر ابن الصديق وأصحابه ادفعوا الى خمسمائة عسكرى وأنا ألقى القبض عليه وأهدم زاويته ثم اتفق بعد ذلك أن اجتمع الشيخ به فقال بلغنا أنك قلت كذا ولو جئت إلى لذهبت معك إكراماً لك دون أن يكون معك عسكرى واحد فنجعل القاضى وتاب

ويالجملة خال الشيخ رضى الله عنه في هذا الباب من أعجب الاحوال
وأخباره فيها من اغرب الاخبار وان كان كل حاله عجبا ،

ومن هذا القبيل ما وقع له مع بعض محبيه من العلماء وذلك في قضية
عظم أمرها لدى الحكام وكان ذلك المحب مطالعا فيها على الحقيقة ومشاهدا
للوابع فلما اجتمع الشيخ بمندوب السلطان وعرفه أن الامر خلاف ماهو
عندهم وأن الحق بيده استشهد بصديقه العالم المذكور وكان مجلس المندوب
خاصا بدائرته من العلماء والكتبة فلما حضر ذلك الصديق أنكر أمام الشيخ
أن يكون عنده علم بما قال . فسكت الشيخ وفهم ان الرجل خاف لأنه كان
من الموظفين فلما رجع الى منزله أتاه ذلك العالم المحب وقال ساعنى فيما فعلت
فانى أعلم انك تقبل معذرتى وهم لا يقبلون فمازاده ذلك إلا محبة فيه
وإخلاصا لصداقته وتكاد هذه القصة تكون أعجب من كل مامضى لأنها
مسقطه لجاه المرء مصرحة بكذبه ومبظلة لدعواه فى الوطن الذى يجب فيه
انتصاره واثبات حجته ودعواه .

قال فى نبذة التحقيق وأما حلمه وصفحه عنم كان يؤذيه فبالمكانة
القصوى والمنزلة الشماء العليا لا يحقد على أحد ولا ينتقم من مؤذيه ولو تمكن
منه او وجد اليه سبيلا وحسبك مثالا اغضاؤه عنم ساعدوا من ناروا عليه
حتى من كانوا يتظاهرون بالاختصاص به والنسبة اليه وفى الحقيقة كانوا معه
وهم عليه وانى لأعرف جلهم عيناً واسماً وصفة ووصفا .

ولو كان هذا موضع القول لاشتق

فؤادى ولكن المقال مواضع

فكانوا فى صدور من شهدوا فيه وهم زهاء المائتين ولم تكن شهادتهم
إلا بافترأت واختلاقات وتزويقات وتنميقات تولى كبرها من هو الآن لا
رفيق له سوى عمله وليس له واق من جزاء سوء فعله إلى آخر ما قال .

فصل

وكما كان الشيخ رضى الله عنه متخلقا بهذا كذلك كان يدعو إليه ويحث دائما عليه فلا يأتيه مظلوم يشتكى غيره في نفس أو عرض أو مال إلا ويأمره بالصبر والاحتمال وكف الأذى ومقابلة الاساءة بالاحسان ويقول للمشتكى أطمع الله فيمن ظلمك وتعدى عليك بالاعراض عنه وتحمل الأذى منه من حيث عصاه فيك بتعديه عليك فإنه ما قابل أحد من عصى الله فيه بمثل أن يطيع الله فيه ويمثل أمره بالعرفو والاحسان ويفوض أمره الى الله تعالى وهو سبحانه يتولى نصرته والانتقام له بما لا يقدر هو على مثله مع سلامة الدين واكتساب الأجر والمحمدة ويقول للمشتكى أطمع أمرى بالاعراض عنه وجرب ما أقوله لك فان لم تر انتقام الله تعالى لك من عدوك فلمنى على ذلك فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فاذا أحسنت العمل باتباع السنة والعرفو والصفح فلا بد أن يتولاك الله وينتقم لك من عدوك . ويؤيد هذا بما ورد فى أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث مع حكاية الصالحين فلا يقوم المشتكى من بين يديه إلا وهو فرح مسرور قد طابت نفسه وأعرض عن صاحبه مفوضا أمره لله وربما ساعه ابتغاء مرضاة الله .

فصل

وكان رضى الله عنه فى التواضع بالمنزلة التى يكون عليها أمثاله من أكابر العارفين والعلماء العاملين لا يعرف الكبر والعظمة ولا يرى لنفسه امام أهل الفضل والدين مرتبة يخدم الضيوف بنفسه ويقدم لهم النعال بيده ويجالس المساكين وذوى الخصاصه والأملاق والثياب الوسخة ويتذاكر معهم فى شئونهم الخاصة حتى كأنه واحد منهم ويخرج بالثياب المتواضعة ولا يلبس

التياب الرفيعة الحسنة ولو أهديت إليه ولا يتميز في الجلوس عن اخوانه ولا يحب التميز عن الناس في شيء أصلا .

قال في نبذة التحقيق وأما تواضعه فكان بالمكانة التي كنا نستحي منه فيها يسبق زائرهم والمسلم عليه بتقبيل يده أو على الأقل تقبيل رأسه . ولا سيما ان كان الزائر من أهل الفضل والدين وربما قدم النعل بيده الكريمة عند وداعه ويبدى من مخاطباته لي بخطه المبارك ما يوقن في الخجل حين أقف عليه وربما شككتني في نفسي حينما أراه مبالغا في الطرائي لكني أعود لعشي حينما أتذكر أن ذلك كان دأبه مع غيري والحقيقة أن ذلك من تنزله مع الكبير والصغير والجليل والحقير ، والكريم الذي جاء هذا الوصف الجميل والخلق السني الجليل الذي لا يقدر عليه الا سادات الناس هو الذي جعله من أفاضلهم رضوان الله عليهم أجمعين وعنايتهم آمين اه .

وقال في النسمات وأما تواضعه رضى الله عنه فكان تواضع المحققين من أهل الباطن وأرباب القلوب ، ممن فنوا عن أنفسهم وبتقوا بربههم وشهدوا عظمة علام الغيوب ، فكان يتواضع مع الكبير والصغير ويخفض الجناح للضعيف والوضيع والحقير خصوصا أرباب الخمول ورثاة اللباس ، ممن لا يفتقدون إذا غابوا ولا يعرفون إذا حضروا فكان يعاملهم بمكارم الأخلاق ومزيد الاقبال والتعظيم والاحترام فيلين لهم الكلام ويظهر لهم البشاشة ويصرف لهم الوجهة وينشر عليهم رداء الاحسان ويؤانسهم ويواكلهم ويحادثهم بما يدخل عليهم السرور ويزيل عنهم الوحشة والنفور وترى منه معهم من البشر وطلاقة الوجه وانسراح الصدر وطيب الكلام مالا تراه منه مع غيرهم وهكذا كانت معاملته أيضا مع آل البيت والعلماء وأهل الفضل والدين يعظمهم ويحلمهم ويتواضع معهم ويتصاغر دونهم ويغيب عن نفسه في رؤيتهم وينسى حقوقه في حقوقهم بل لا يرى لنفسه وجودا

معهم . وبالجملة فتواضعه رضى الله عنه تواضع العارفين وخضوع الاولياء الكاملين لا تكلف فيه ولا إتعمل ولا يتخلق بل كان خلقاً ممزوجاً بذاته ، وهو التواضع الحقيقي الناشئ، عن شهود عظمة الحق جل جلاله الذى يغيب صاحبه عن شهود تواضعه وهو وراثة نبوية من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كسائر أخلاقه اه .

قلت : ومن تواضعه أنه كان لا يؤم الناس فى المحافل والمجالس ، بل يقدم من حضر من أهل العلم والفضل حتى من الطلبة الصغار فى السن إذا لم يوجد غيرهم . وكان لا يحب من يمدحه بالنظم والنثر ولا يترك عنده قصيدة قيلت فى مدحه الا نادراً ولا يظهر ذلك لأحد ولا يذكره قط ولو كان يترك تحت يده ما قيل فيه من القصائد والامداح ولم يحرقه لجمع من ذلك الشئ، الكثير . وكان لا يلتقن العلماء وأصحاب المظاهر وان طلبوا ذلك منه وألحوا عليه فيه بل يتواضع معهم ويقول أتم غير محتاجين إلى أمثالنا ويعظم من شأنهم ويصغر من نفسه حتى يقوم ذلك الشخص من عنده وهو معتقد أنه حائز لكل فضيلة وكمال ، وهذا خلق غريب بالنسبة للمتمشixin من أهل العصر فانهم يفرحون غاية بكثرة التائقين بل يدعون الناس إلى الأخذ عنهم وربما لقنوا الرجل وهو كاره لذلك ودعوه إلى ترك ما أخذه عن غيرهم قبلهم رغبة فى كثرة الاتباع وحب الرياسة والظهور ، وكذلك كان لا يتظاهر بالكرامات تواضعاً وسكوناً ورغبة فى الخفاء وعدم الظهور الا ما أظهره الله تعالى على يديه من غير اختيار ولا قصد إلى إظهاره بل كان يذم ذلك ويعده من الرعونات والنقص فى مرتبة الكمال .

قال فى حادى الرفيق بعد حكاية كرامات صدرت على يديه ما نصه مع أنه رضى الله عنه كان لا يتظاهر بكرامة ولا يميل إلى شئ من ذلك . وكان يقول : الولي إذا كان يريد ظهور الكرامة على يده فهو لا يزال ناقصاً ، وكثيراً ما كان يقول لنا فى مجلس المذاكرة نحن لسنا بشيوخ وأتم

لستم بفقراء وإعما نحن مجتمعون للتعاون على عبادة الله تعالى وذكره على قدر الطاقة وبرود همة أهل الوقت اه .

ومن تواضعه أنه كان كثير الاستشارة مع أصحابه بل وخدمه وأولاده الصغار في أغلب شئونه ولا ينفرد برأيه في التقدم إلى شيء وإمضائه دون مشورة إلا في القليل النادر مع أن الناس كانوا يتواردون عليه أفواجا للمشورة معه في أمورهم المهمة فيرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم لا من طريق حسن النظر وإصابة الرأي فقط بل ومن جهة الفراسة الإيمانية والكشف النوراني فكثيراً ما كان ينهى أقواماً عن مزاوله أمور هي في الظاهر وما يبدو للناس في غاية الموافقة للصواب ثم بعد ذلك يتضح منها ما لم يخطر لأحد على بال وربما أشار بما يثقل على النفس ويظن أنه بعيد عن النجاح فيكون فيه الخير العظيم والبركة التامة وقد تأخر قوم عن إشارته بعد استشارته فما أفلحوا ولا أتجحوا بل وقعوا في المهالك والمعاطب ومع هذا فكان هو لا يقدم على أمر إلا بعد استشارة امتثالاً لأمر الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما كان يلزم الاستخارة ويحث عليها دائماً ويبالغ في الأمر بها . ولا يجب من أحد أن يتقدم لأمر هام دون أن يقدمها بين يديه ، لا سيما أهل العلم والنسبة إلى طريق أهل الله .

فصل في

ومن تواضعه وحبه للخفاء وإثاره الخمول على الجاه والرياسة والظهور اختياره السكنى بمدينة طنجة على غيرها من المدن ومفارقتها ووطنه الذي لو أقام به مع ما لواده وأسلافه من الشهرة والجاه ونفوذ الكلمة ومع ما أكرمه الله به من المواهب والعلوم والأسرار والمعارف وجميل العشرة ومكارم الأخلاق لحصل له من

الشهرة والجاه والخير العظيم وإقبال الخلق ما لم يحصل لغيره وقد تعلق به أهل فاس وكذلك أهل الاسكندرية والتزموا ببناء الزاوية والقيام بجميع الشئون فلم يقبل إلا أن يقيم بالبلد الذي لا يعرف فيه قدره والذي يزداد أهله له عداوة وبغضاً ومحاربة وحسداً كلما رأوا زيادة فضل الله عليه وبعد صيته واشتهار ذكره وعظمة جاهه كما هي عاداتهم مع جميع أهل الفضل من الأشراف والأولياء والعلماء فقد أقام الشيخ رضى الله عنه بين أظهرهم خمساً وثلاثين سنة حيث فيها بلدهم بعد موتها واشتهر ذكرها بعد خمولها وعمرت بذكر الله وذاكره بعد خرابها وقصدها الأشراف والعلماء والفضلاء والأولياء بعد أن لم يكن يقصدها إلا الشرطية والطوبجية وصائدوا الأسماك من الأسبان والبرتغال وصار يسمع في أزقتها ذكر الله تعالى صباحاً ومساءً بعد أن لم يكن يسمع بها إلا زمارة الطوبجية وأصوات السكارى ووقع المجاديف وفشا فيهم العلم والفضل وقام فيهم سوق الأدب والدين فكانوا أخسر الناس صفقة فيه وآتى اليهم من المعروف وأنواع البر والاحسان في الحسيات والمعنويات ما لوفعله مع أهل قطر كافر لأسدوا فلم يكذبوا فرد منهم من وصول بر الشيخ وإحسانه إليه من شفاعته ووساطته في وظيفة أو معالجة أو مساعدة أو اصلاح أو قراءة علم أو غير ذلك مع ما كان يدافع عنهم هو وأصحابه لدى الحكومة يريد بذلك حفظ حقوقهم ورفعته قدرهم وإبقاء حرمتهم فلم يزدحم ذلك إلا حقداً عليه وحسداً له وبغضاً فيه وسعياً حثيثاً في إذائته وإطلاق اللسان فيه بما هم متصفون به ثم اجتمعوا كلهم بدعوة قائدهم وكتبوا عريضة قدموها للسلطان وغالب من أنزل بها خطه تلامذته في العلم والطريق أو ممن دخلوا في صف الأناسى واستنشقوا رائحة الوجود بوساطته وشفاعته بعد أن كانوا مساوين للعدم من كل الوجوه وقصدوا بذلك تقيمه من البلد هو وأصحابه وأرسل إليه بعض أعيانهم يقول اخرج عنا من بلدنا ودعنا في أمن وعافية فدارت عليهم الدائرة وسقطوا في حفرة مكرهم وابتلوا بما صاروا به متميزين عن سائر مدن المغرب من تشييت الرأى وتفريق

الكلمة وفرط الجبن مع الفقر والحاجة والذلة والمهانة ونفى الله من تولى كبر ذلك وأخرجه من وطنه وأنزل بهم عقوبته على عدم شكر نعمته وجعلها سارية في عقبهم إلى يوم القيامة على أن الله تعالى سلك بالشيخ في ذلك ملك سلفه الأولياء الأكاير أفراد الأمة المحمدية وورثة الأنبياء والمرسلين كما هي سنة الله تعالى فيهم .

قال القطب الكبير مولانا ابو الحسن الشاذلي رضى الله عنه جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأوليائه أن يسلط عليهم الأذى في ابتداء أمرهم باخراجهم من أوطانهم ورميهم بالبهتان والزور ثم تكون الدالة لهم آخرآ ان صبروا قال ولما علم الله عز وجل ماسيقال في أنبيائه وأصفيائه قضى على قوم بالشقاء فجعلوا لله تعالى زوجة وولداً وقالوا يد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء حتى إذا ضاق ذرع النبي أو الولي من كلام قيل فيه نادته هو اتف الحق تعالى أما لك بي أسوة فقد جعلوا لى زوجة وولداً ونسبوا إلى ما لا يليق بجلالى وعظمتى وأنا خلقتهم ورزقتهم فلا يسع ذلك النبي أو الولي إلا التأسى ولذلك تحمل الأنبياء والأولياء ما يرميهم به قومهم من الزور والبهتان والجنون والسحر وغير ذلك مما هو مشهور فى الكتاب والسنة اهـ

وحكى العارف تاج الدين ابن عطاء الله عن أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما أنه كان يقول لا يكمل عالم فى مقام العلم حتى يبتلى بأربع شماتة الأعداء وملازمة الأصدقاء وطعن الجهال وحسد العلماء فان صبر على ذلك جملة انه اماماً يقنذى به اهـ .

ومن الغريب أن بعض زعمائهم فى الأوصاف والأخلاق المذكورة قال فى هذه الأيام وهو فى مجلس جرى فيه ذكر الشيخ رضى الله عنه لو أقام السيد بياريز المدة التى أقامها بطنجة لكان له شأن عظيم ولكنه أقام بين من لا يعرف قدره

فصل

وكان رضى الله عنه شديداً الحياء لا يكاد يكلم إنساناً وهو ينظر إليه إلا فى ساعة المذاكرة العلمية أو مع من هو من خاصة أحبائه وجلسه ولا يواجه أحداً بمكروه ولا يظلمه أحد فى شىء فيرده أو يمتنع من اجابته إلى مراده ويتحمل ضرر الثقلاء وكثرة كلامهم وإطالتهم المجلس ولا ينصرف عنهم حتى يكون الواحد منهم هو المنصرف بنفسه ولا يعارض أحداً فى قول ولا يرد عليه كلاماً ولا يكذبه فى خبر أو حكاية ولو تحقق كذبه .

قال فى نبذة التحقيق كان أشد حياء من العذراء فى خدرها فكثيراً ما تلقاه ولا تكاد تراه إلا مطرفاً بعينه ورأسه يكلمك وربما لا ترى داخل عينيه .

وكان لا يحضر المحافل العمومية لا سيما أواخر عمره فاذا حضر كان على غاية من الأدب والسكال والتواضع فى جلسته وهيأته وكلامه .

وكان على أدب كامل مع الله تعالى ومع شريعته المطهرة وسنة نبيه المشرفة ومع جميع عباد الله تعالى فى سكناته وحركاته فلا يخرج عن طريقة الآداب الشرعية فى شىء أصلاً فلا يمد رجله لا مع الناس ولا منفرداً وحده لا فى حالة الصحة ولا فى حالة المرض ولا كان ينام على ظهره ويجعل إحدى رجله على أخرى ولا يجلس جلسة المترفين أو يتكىء على أحد جنبيه وإنما كان يجلس متربهاً أو محتبياً لا سيما وقت المطالعة .

وكان يتأدب مع كتب العلم فى الوضع والترتيب فلا يضع كتاب نحو أو أو تاريخ أو آداب على كتاب فقه أو تصوف فضلاً عن حديث أو تفسير بل كان يضع كتب التفسير العليا ثم التى تليها كتب الحديث ثم الفقه والتصوف ثم الكلام والأصول ثم النحو واللغة والأدب والتاريخ وإذا رأى مجلد تفسير

او حديث تحت مجلد نحو او تاريخ بادر في المال ووضعه في اعلى الكتب
وقد دخلت يوماً بمصر على بعض العلماء الذين يدعون العمل بالسنة فوجدت
بين يديه كتباً كثيرة فيها النهاية لابن الاثير في غريب الحديث والقاموس وغيرها
وكان يصحح تاريخ الخطيب عند طبعه وإذاهو واضع صينية القهوة بأوانها
فوق تلك الكتب يشرب عليها القهوة فنهيته عن ذلك فقال لم أحسب ان فيها
شيئا ولا ان فيها اهانة .

ودخلت يوماً على بعض من يدعى أنه شيخ للطريقة الخلوتية فاذا هو رجل
جالس على كنبه وفارش تحت رجله كثيراً من الجرائد واضع رجله عليها
مع انها لا تخلو من مقال فيه آية أو حديث او من اسم الله على الأقل .

فص — ل

وكان رضى الله عنه سايم الصدر والنية كثير التصديق حسن الظن
يسلم لكل مدع دعواه ويصدق كل قائل فيما يقول لا يكاد يخطر بباليه تهمة
احد بكذب او تدليس او غش أو خديعة ونفاق مجبولا على ذلك بطبيعته
وفطرته التي فطره الله عليها مع التخلق بالأخلاق النبوية في ذلك والاوامر الشرعية
بحسن الظن والحث عايه والترغيب فيه .

وكثيراً ما كان يرد عليه المتمشخون فيدعون عنده بالمقامات العالية
والكرامات الكنيرة وحضور الديوان ونحو هذا فيصدقهم فيه ويعاملهم
على مقتضى دعواهم من الاجلال والاكرام اللائق بصاحب تلك المنزلة وإن
كان كاذباً فيها بمقتضى شواهد الحال فضلاما ورا ذلك وما علم أنه امتحن
احداً في مقام ادعاه ار رد عليه ذلك لاني حضوره ولا في غيبته بل يسلم ذلك
ولو تحقق في نفسه بكذبه بل كان يعنى غاية بالستر على الكذابين المدعين
ويذب عنهم ويتأول ماصدر منهم مما يخالف اصول الطريقة او يبين حال العامة
من الناس ويحيب عن ذلك بأجوبة ويمتذر عنهم بوجوه من الأعذار ما لم

يكن ذلك مخالفاً للشرع خارجاً عن حدوده . وقد ذكرت في الأصل عدة حكايات وقعت له في هذا الباب .

وكان ستيراً على أهل المعاصي فإذا اطلع من أحد على شيء لا يفضحه ولا يذكر ذلك لأحد بل يفض الطرف عنه كأنه لا علم له بشيء وإذا اقتضى الحال زجر الفاعل عن ذلك الفعل دعاه في خلوته من حيث لا يطلع عليه أحد وزجره ونهاه حتى كان كثير من خدمه وأصحابه وأولاده يخافون من اطلاع أحد عليهم في شيء ولا يخافون من اطلاع الشيخ لتحققهم بستره عليهم وعفوه عن جنائهم دون غيره .

وكان يقوم بحقوق أصحابه وإخوانه من جميع الوجوه ولا يتشوف هو لأن يقوم أحد بحقوقه ولا يعتب على أحد في تضييع حق من حقوقه أو إساءة أدب معه أو هفوة صدرت منه وإن عظم أمرها وتكرر فعلها ويقول لمن يذكر له شيئاً من ذلك إن الناس اليوم يرون لهم حقوقاً على غيرهم ولا يرون لغيرهم حقاً عليهم . فالواجب علينا أن نقوم بحقوقهم امتثالاً للسنة المحمدية وعملاً بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نتنظر من أحد أن يقوم لنا بحق وإلا قاطعنا الجميع وأعرضنا عن الكل وعاديناهم لأن هذا وصف غالبهم وما بذلك أمرنا الله .

وكان يقول : الناس كلهم يحتاجون إلينا ونحن نرجو الله تعالى أن لا يجوزنا إلى أحد منهم .

وكان إذا كثرت عليه الشكايات بالفقراء وتكررت لديه الأخبار عنهم بما يسوء يقول لم يبق اليوم فقراء وإنما هم فقراء بتقديم القاف على الفاء . ويقول في حقهم أيضاً : إن الفقراء فيما مضى كانوا فقراء بلا بطون ثم صاروا فقراء ببطون ، وأما اليوم فبطون بلا فقراء .

وكان يأسف لموت أحد من إخوانه في الله ومجالسيه ويبكي بكاء شديداً

لا سيما في أواخر عمره فاني رأيتُه يبكي عند موت بعضهم بكاء شديداً
وينتحب نحيباً يسمع من بعيد كما يبكي الرجل على والده وأمه وأعزأولاده
لكثرة محبته وألفه باخوانه وجلسه .

وكان يجب موافقة السنة في كل شيء ويسمى جهده أن يحصل له كل
ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم ويحث على هذا وينبه للعمل به ويحكي
عن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضى الله عنه أنه أخذ يوماً طفلاً
فبال عليه ففرح بذلك أو قال أولم لأجل ذلك وقال الحمد لله هذه آخر سنة
لم نكن أدركناها قد حصلت لنا الآن ببول هذا الطفل لأن النبي صلى الله
عليه وسلم أتى بطفل رضيع لم يطعم فبال عليه وكان الشيخ يجب كل
ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه من الأطعمة كالدياب ونحوه مما
ورد في السنة وكذلك كان يجب المعاملة مع اليهود والاستدانة منهم لأن
النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم ويستدين منهم ، ومات ودرعه مرهونة
عند يهودى .

ولمحبته في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وموافقة سنته اختار الله
له موافقته في كثير من أموره بغير قصد منه واختيار . فتزوج قبل وفاته
بشهر ونصف أو نحوه بزوجة لم يدخل بها لأنها زفت إليه في رمضان وكان
الضعف ومرض القاب الذي مات منه قد اعتراه مع الصيام إلى أن مات في
سادس شوال ، وكذلك تزوج النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة بنت قيس
الكنندية قبل وفاته بشهرين وقيل في مرض موته وقيل في ربيع الأول ولم
يدخل بها لتأخر قدومها عليه إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه
وسلم .

ولما حج الشيخ رضى الله عنه كانت وقفته بالجمعة كما كانت وقفة النبي
صلى الله عليه وسلم مع أن الشيخ خرج للحج قبل ظهور ذلك لأن خروجه
من وطنه كان في شعبان كما سبق .

وتوفى الشيخ رضى الله عنه وعليه ديون كما توفى النبي صلى الله عليه وسلم وعليه دين كذلك .

ولم يتزوج على زوجته الأولى إلى أن توفيت ثم أخذ بعدها زوجات متعدداً وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها إلى أن ماتت فأخذ زوجات متعدداً .

وكانت زوجته الأولى فاضلة عاقلة سالحة ذات مناقب وكرامات كما كانت خديجة رضى الله عنها ذات مناقب حمة وفضائل عديدة .

وكان إذا نابه شيء فزع إلى الصلاة كما كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فكان يفرح ما نزل به في الحال ويقضى ما قصده بامتثال أمر الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكان يكرم الجار غاية ويراعى حرمة وحقوقه على أى حالة فلقد كان له جار مفرط الجهل والاسراف على النفس مع التكبر على الله تعالى وعلى عباده الصالحين فلا تلين قناته لأهل الفضل والدين ولا يظهر لهم ميلاً ولا احتراماً كأنه غنى عن رحمة الله تعالى . ومن جهله المفرط أنه باع السبعين من العمر وما سجد لله سجدة قط ، فقال له بعضهم يوماً ألا تصلى ، فقال نحن ما كنا نلعب صغاراً فضلاً عنا ونحن كبار . وبالجملة فكان في منتهى الجهل والجفاء والاسراف كما تقتضيه طبيعة أرضه لأنه من ذوى بيوتها . فكان الشيخ رضى الله عنه يكرمه على هذا الحال ويراعى حق جواره لأنه كان ملاصقاً له . ولما توفى خرج لحضور جنازته والصلاة عليه بباب الدار مع أن الفقهاء يكرهون الصلاة لمن هو دون الشيخ على من هو أحسن حالاً من هذا الجار سألنا الله وإياه وعاملنا جميعاً بفضلته ورحمته .

وكان ينخدع لمن خدعه ولو كان خداعه من البين الواضح المكشوف فكان جماعة من أتباعه وفقرائه يبيفزون أولاده وأقاربه بحكم طبيعة البلد التي ينبت ماؤها وهوؤها الحقد والحسد في القلوب كما ينبت الماء البقل

والريبع وكانت تحصل منهم إذابة عظيمة وإهانة كبيرة لا يتحملها بشر
لأولئك الأقارب والانجال ثم يأتي أحدكم الى الشيخ رضى الله عنه يريد
خداعه والتابيس عليه قائلًا إني فعلت مع الشريف الفلاني كذا وكذا من
سب وإهانة واحتقار وأخذ حق ومال ، وما فصدى بذلك الا تعظيم جنا بكم
وتبرئة ساحتكم لأنى رأيت منه مالا يابق بمقامه ومقامكم فيعلم الشيخ
أنه كاذب في دعواه وأن الذى حمله على ذلك فرط حقد وحسد في قلبه
وحب انتقام من أهل الفضل والدين ولسكنه يظهره الفرح والسرور
ويقول جزاك الله خيرا ويمدحه على فعله ذلك ويطريه حتى يذهب الأحمق
المغرور وهو ظان أن خداعه قد راج على الشيخ بل لا يكتفى بذلك حتى
يعتقد أنه على حق وصواب وفضل كبير كما حلاه به الشيخ الذى قد عرف
قصده وتحقق من كذبه ليس فى مرة واحدة فقط بل والله فى مئات المرات
وقد استدعى الشيخ رضى الله عنه ذلك المظلوم المعتدى عليه من ذلك الجاهل
المجرم فيوصيه بالصبر والاحتمال ويقول له أنا متحقق من أنك مظلوم برىء
مما نسبته اليك فلان وأنا أعرف قصده من ذلك ولكن حيث وقعنا معهم
وابتلانا الله بصحبتهم فلا حيلة لنا الا احتمال أذاهم والصبر عما يأتينا من
إذابتهم كما أمرنا الله تعالى وما هى إلا أيام قليلة يصبر فيها المرء ثم يعاجله
الله تعالى بالنصر والفرج على عدوه وإن أحياءك الله تعالى فسترى من أعدائك
ما يسرك إن امتثلت أمر الله فيهم بالصبر والاحتمال وعدم المقابلة بالمثل وقد
وقع والله كل ما قال وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار ولا يزال يظهر
وينمو حتى يصل المنتهى والحمد لله رب العالمين .

وكذلك كانوا يخدعونه من جهة المال والتوسط فى الحصول عليه بضمانة
ووساطة ونحو ذلك بأعدار وكلمات ظاهرها حق وصدق وباطنها غش
وخداع فينخدع لهم ويوصلهم الى ما أرادوه مع تصريحه لبعض خواصه

في كثير منهم أنه يعلم كذبهم وعزمهم من أول مرة على أكل المال وعدم رده إلى أربابه ليدفعه الشيخ من عنده ولا يحصى من كان يعامله بمثل هذا وهم على قسمين . منهم من كان يعتقد أنه لحذقه وذكائه يخدع الشيخ ويفره أسامة صدره وصفاء طويته . ومنهم من كان متحققاً بأن الشيخ غير مخدوع في الواقع وإنما يتظاهر بأنه قد انخدع لأرضاء الخادع ومع ذلك فكان يعامل الشيخ بطريقة المكر والخداع لأغلبة ذلك على طباعهم مع قلة حياهم .

وقد روى البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وغيرهم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » يعنى ان المؤمن المحمود في الفعل والخصال من كان طبعه الغرارة وقلة التظاهر بالفتنة للشر وترك البحث عن الأمور وليس ذلك منه جهلاً وغباوة بل تجاهلاً وتسامحاً لكرم أخلاقه وحسن طباعه . والفاجر من أخلاقه الخبث والدهاء والتوغل في معرفة الشر والحذر لدناءة طبعه ولسوء أخلاقه وفقدته الكرم من نفسه . قال بعض العارفين كن عمري الفعل فان الفاروق رضى الله عنه يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له . فاذا رأيت من يخدعك وعلمت أنه مخدع فمن مكارم الأخلاق أن تنخدع له ولا تفهمه أنك عرفت خداعه . فاذا فعلت ذلك فقد وفيت الأمر حقه لأنك إنما عاملت الصفة التي ظهر لك فيها والانسان إنما يعامل الناس لصفاتهم لا لأعيانهم فاذا عاملته بما ظهر منه كنت مؤمناً حقاً . والمؤمن غر كريم لان خلق الايمان يعطى المعاملة بالظاهر اه .

وقد نص العارف الشعرائي في الأخلاق المتبولية على أن هذا من أخلاق العارفين وكل الرجال كما نقلته في الأصل . وعلماء الوقت يسمون مثل هذا مغفلاً وعبيطاً جهلاً منهم بالسنة وإعراضاً عن العمل بها . نسأل الله السلامة والعافية بمنه .

فصل

وكان يضع السبحة في عنقه إذا خرج ويمسك بيده العصا الطويلة المستقيمة ذات الزج كما هي سنة الأنبياء عليهم السلام وورثتهم من الصوفية العرفاء رضى الله عنهم لا العصى القصيرة الممكوفة الرأس كما يمسكها علماء مصر بيدهم زينة وتكبراً وافتخاراً وتشبهاً بالنصارى لأنها من سنتهم التي تبعمهم في جميعها علماء مصر، نسأل الله اللطف والعافية .

وكان في بداية أمره يجهر بذكر الله في الشوارع ويأمر بذلك الفقراء كما كان يأمرهم بحفظ القرآن وتعاهد دراسته ونلاوته .

وكان يحث الفقراء وطلبة العلم منهم ومن غيرهم على الاشتغال بالحرف وتعلمها والتكسب بها وبالتجارة ويقبح لهم البطالة جدا ويبالغ في ذمها وذم الكسل والاتكال على الناس . ويقول ان ترك الحرفة والتجارة يؤدي بالطالب والفقير الى أن يأكل بدينه أو يتذلل لاهل الدنيا أو يدخل في الوظائف الحكومية مثل القضاء والشهادة ونحوهما مما يهدم الدين جملة ويقضى عليه بالسكينة . ويقول لان يبيع طالب العلم الفهم والنعمان في الشوارع خير له من الدخول في القضاء والشهادة .

وكان كثير الاهتمام بأمر العامة شديد الشفقة عليهم قد بذل كل ما في وسعه وطاقته لنفى الشر عنهم والتوصل إلى أسباب انقاذهم مما هم فيه . فلما أعياه أمرهم وعلم أن مراد الله منهم ما هم فيه أقبل على شأنه وأمر الفقراء المتجردين في الزاوية بادامة قراءة سورة يس صباحا مع الوظيفة بنية الفرج على الامة ودفع البلاء عنها . وبذكر اسمه تعالى اللطيف كل ليلة لهذا الغرض أيضا وترك ما كان يسمى فيه من الاسباب الحسية الظاهرة لذلك لبلوغه مقام الكمال في المعرفة بالله تعالى .

فقد ذكر العارف الشعرائى فى الفلك المشحون أن من أخلاق السكل من العارفين عمل أحدهم على تحصيل مقام عدم الاهتمام بأمر المسلمين وعدم مشاركتهم فى همومهم ا كتفاء بتدبير الحق لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم لا استهانة بحقوقهم وذلك بعد عملهم على مقام مشاركتهم فى كل هم وغم حتى بلغوا الغاية فى ذلك ودليلهم فى الشق الاول العمل بباطن حديث «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» بعد عملهم بظاهره وهو مقام عزيز قل من يتنبه له من الفقراء وإيضاح ذلك أن هذا الحديث يحتمل أن يكون المراد به أنه ليس منهم على وصف الذم ويحتمل أنه ليس منهم على وصف المدح كما هو شأن السكل من الاولياء لان أحدهم قد ارتفع عن مقام الاسلام والحجاب الى مقام الاحسان والايقان فضلا عن مقام الايمان يشهد أن الله ما ابتلاهم إلا لحكمة بالغة إمالئودبهم بذلك أو ليكفر عنهم سيئاتهم أو يرفع بذلك درجاتهم وصاحب هذا المشهد لا يكاد يهتم لاحد من المسلمين الا بالجزء البشرى الذى يدق فيه . وكان وجوده عدم ثم أطال النقول فى هذا المعنى عن شيوخه كسيدى على الخواص وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وسيدى أفضل الدين وسيدى على المرصنى بما فيه لطائف وفوائد لا تخطر ببال محبوب فارجع إليه فانه نفيس جدا . وذلك بالباب الخمسين من الكتاب المذكور فكان الشيخ رضى الله عنه فى بداية أمره يعمل بظاهر الحديث المذكور ويهتم بأمر المسلمين اهتماما مارآه الراؤون من أحد من أهل عصره لا سيما العلماء ودام يسعى فى ذلك أزيد من خمس عشرة سنة بما يطول شرحه ولا يساعد الوقت على ذكره ثم صار فى نهايته يعمل بباطن الحديث أيضا فسلم الامر لله وصار يترقب ما يبرز من الحضرة الالهية دون وساطة بشر أو سعى مخلوق .

وكذلك صار فى آخر عمره لا يتكدر مما عليه الناس من كثرة المعاصى والمخالفات . ولا يتأسف على ذلك ولا يكتر من ذكره الا على سبيل القلة

والندرة بخلاف ما كان عليه في بداية أمره فإنه كان كثير التعرض لذلك في دروسه وخطبه ومجالسه بقصد تغيير المنكر والتنبية عليه وذلك أيضاً من كمال المقام في المعرفة وهو مقام عدم الاعتراض على شيء من الاقدار الالهية ولو خاطراً كما ذكر العارفين الشعرائي . قال وهو مقام عزيز لا يثبت فيه إلا من أطلعه الله تعالى على اللوح المحفوظ وعرف ما سبق به العلم الالهي . فهناك يذهب الاعتراض منه جملة بيساىء الرأي وصاحب هذا الاطلاع يعرف أن ما سبق به العلم الالهي لا يطلب تغييره لكونه على أعلى مراتب الكمال كما أشار الى ذلك الغزالي رحمه الله تعالى بقوله : ليس في الامكان أبدع مما كان أى لأن جميع ما برز في الوجود ما برز الا على أعلى مراتبه التي سبق بها العلم عند هذا المكاشف فكيف يقع منه اعتراض وهو يشهد أن ما برز في الوجود أكمل مما يطلبه هو بعقله .

وسمعت سيدي نلياً الخواص رضى الله عنه يقول من علامة صدق من اطلع على ما سبق به العلم الالهي في اللوح المحفوظ أن لا يأمر الناس ولا ينههم الا بقدر ما فيهم من الجزء البشرى الذى هو مناط التكليف لا يزيد على ذلك ذرة ولا ينقص وان وقع أنه مدح من زاد على غيره في الطاعات أو ذم من زاد على غيره في المعاصى فأنما هو من حيث الجزء البشرى كذلك انتهى وإلا فشهد صاحب هذا المقام أن العبد لا يقدر أن يزيد ولا ينقص مما قدر له أو عليه . ثم أطال النقول في ذلك وهو مقام الشيخ رضى الله عنه ومشهده لأنه كان يقول لبعض من تقع منه المخالفات من خواصه استتر بستر الله ولا تبد شانك للناس فانهم لا يعذرونك ولا عليك من اطلعنا فانا نعرف مراد الله منك ولا نلومك على شيء صدر منك حتى يكون الله تعالى هو الذى يظهر فيك مراده .

وسمعت مرة يقول لبعضهم : والله لو دخلت على سكران تتمايل ما تغيرت منى شعرة واحدة عايك وأنا أعلم ما في الأمر وما هو الواقع ولذلك كان

ستيراً على أهل المعاصي باراً بهم كما قدمناه .

وكذلك كان في بدايته يكثر التعبد ويتقشف على قدر حال الوقت ثم في نهايته ترك ذلك وصار لا يزيد على الفرائض في الصلاة والصيام وربما صام يوم عرفة ونصف شعبان في بعض الأعوام الا قيام الليل فانه لم يتركه أصلاً وما كان يأتي عليه ثلث الليل الأخير الا وهو قائم وربما قام في منتصف الليل وهذا أيضاً من كمال المقام في المعرفة بالله تعالى كما هو معروف عند أهله .

وكان يفرح بكثرة كلام الناس فيه ويضحك اذا سمع الجرائم العظام التي ينسبها اليه أهل بغضه وعداوته ويبالغ في إكرام من يرد عليه من المتكلمين فيه . وقد رأى بعض الشيوخ الصالحين من أهل فاس للشيخ رضى الله عنه مقاماً عظيماً فسأل عن سبب وصوله اليه فقيل له كثرة كلام الناس فيه وهذا أيضاً من أسرار اختياريه السكنى بطنجة والله أعلم .